

د. عمار علي حسن

رواية

# باب رزق



العنوان،

باب رزق

بقلم:

عمار علي حسن

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين  
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية  
أو التصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي سري من الناشر.

التراقيم الدولي: 5285-0 14- 977- 978  
رقسم الإيداع: 13745 / 2015  
الطبعة الأولى: أغسطس 2015

تليفون: 33466434 - 02 33472664  
فاكس: 33462576 - 02

خيمة العبادة 11711

Website: www.nohdetmisr.com

E- mail: publishing@nohdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم - 1990

21 شارع أحمد عرابي -  
المهندسين - الجيزة

الفصل الأول

( 1 )

تألفت أخيراً مع صوته الأجلش، لأنني وقعت في غواية ابنته الفاتنة،  
وكان يطربني حديثه عن فتاته القديمة التي سمي حببتي على اسمها،  
ويقول عنها دومًا في ثقة بالغة:  
- تشبهها تمامًا.

لم يولد التألف من دون سبب، ولم يكن نتيجة لمجاهدات عميقة،  
قتلت فيها بقايا الكراهية المترسبة في نفسي له، ولهذا المكان البائس،  
الذي ترقد فتحات بيوته بين أكوام القمامة، وتخالط الكلاب البشر في  
طعامهم وشرابهم، وتصنع الروائح العفنة غمامات تظلل الرعوس ليل  
نهار، لكنه تألف، نما كأشجار برية بلا عناية مني، وكان نموه في روحي،  
لأنني ببساطة همت عشقًا بالوردة بائنة الورد، أو هكذا ظننت في لحظة  
ضعف شديد.

ولعت بها كما ينبغي للولع أن يكون، وأنا غص نضير، وقلبي كفرغ  
يسام خرج من ظلمة العش النائم في حضرة الأغصان الملتفة في قلب  
غاية موحشة، إلى طلاقة الساء الزرقاء الموشاة ببهجة الخيوط الذهبية  
لشمس نعد تحتها أيا منا المترعة بالشقاء.

لكن غرامي، الذي ولد في غفلة مني، جر عليّ متاعب لا قبل لي بها،  
فما أصعب أن تقطف وردة تغطيها أكوام من الشوك الصلب المسنون!

كانت هي كذلك، حبيبتي التي يحبها هذا اليلطجي الفاجر، الذي يتيه على كل أهل الحي بعصابته، وأنا الغريب الذي جاء من أقصى بقعة في هذا البلد بحثاً عن موضع قدم في الزحام الشديد.

كان اسمها «سميرة» وكنت أسامر نفسي يحبها وحيداً تحت سقف أشرف على الهلاك، ولم أكن أحسب أن أيامي معها ستقودني إلى عوالم لم أتخيل أن أنزلق إليها أبداً، وأن نهايتي ستكون مجروحة على هذا النحو الخطير، بل وأنتي سأسأل نفسي بعد أن أبحرت بعيداً في دنياها:

- هل أحببتها حقاً أم هو شغف عابر ورغبة في ترطيب حياتي القاسية بأي شكل؟

كان أبوها يشعر بمكابداتي، بحكم خبرته الطويلة مع النساء، لكنه أثار أن يتواطأ مع وجيعتي، ويترك كل شيء لتصاريف القدر. هذا كان يليق برجل علمته القطارات ذات النعيق الغريب أن الفراق هو الشيء الوحيد الذي يتساوى فيه البشر، وأن المحطات حافلة دوماً بوجوه جديدة وحكايات مختلفة.

مع هذا أصر على أن تكون حكايتي معه دائمة، واصطادني هو وأولاده كي أبقى معهم، حتى لو نسيت كل ما جئت إلى «القاهرة» من أجله.

كان يزعجني صوته في الأيام الأولى التي سكنت فيها غرفة تراقصها الريح على سطح بيت متهالك من طابقيين يقطعه هو وأولاده وزوجته وولدها، وكلهم لا يعنيه ما يشرده في طالب يدرس الفلسفة، ويحلم بتغيير العالم، لكنه عاجز عن تغيير حتى بنطاله «الجيتز» الذي بدأ يتسخ ويتنسل، ولا يعرف من أين له أن يشتري غيره.

تألفت حقاً مع صوته، كما تألفت مع شحيط عربات المترو وهو خارج من محطة «السيدة زينب» وأصبحت أتصور أن الحشرة التي تغلف الحروف الخارجة من حنجرته هي بفعل عشرين شخصاً، يتشاجرون داخل قفصه الصدري، ثم يهدون ويأتون في امتنان ليؤنسوا وحدي، لاسيما في الليالي المطيرة المعبأة بهواء يهدر كموج عني، فأنكمش خوفاً من أن تطير الغرفة بجسدي التحيل، وتبعثر أشياءي القديمة المهترئة.

ناداني هو ذات يوم حين كنت أهبط درجات السلم الخشبي القديم الذي يهتز تحتي رغم تمهلي حرصاً على بقاءه كي يدفعني من زقاق يخفني إلى عزلة كثيفة تروق لي. ربما سمع قرقة قدمي أو سعالي الذي ارتفع في وجه الغبار الذي تثيره أرجل عيال حفاة يلعبون في الحارة، وربما لمح طرف بنطالي الأزرق الذي لا أغیره.

- تعال يا أستاذ «رفعته».

وذهبت إليه دون تردد، فقد كنت أهبط من غرفتي البائسة كي أهيئ على وجهي شاردًا في خيالي، ووجدتها فرصة لأحتسي كوبًا منجائبًا من الشاي، وأريح ساقين تعبتا من مشاوير البحث عن فرصة في مدينة «القاهرة» التي جئت إليها وكلمات أبي ترن في أذني: «ترمع فيها الخيل أربعين يومًا ولا تحجب آخرها».

جلست جواره على «كبة» تصدر أزيزًا متواصلًا مع أي التفتاة أو حركة بسيطة مني، وكانت المرة الأولى التي أراه فيها عن قرب، فأوجعتني الندوب التي تملأ بشرته، والتجاعيد التي تتلاحق على عنقه يملؤها العرق، وصغير صدره مع الشيق والزفير يكاد يخرق طيلة أذني التي تواجه فمه الذي هجرته الأسنان منذ زمن طويل.

لكن حاله يبقى، رغم كل هذا، أفضل بكثير من الهيكل العظيم الملقى على رصيف بلا بلاط فوق بطنانية مشبعة بالوسخ، والذباب يسكن ما يظهر من لحمه، والقمل يتساقط من شعره الملبد كغرة خروف لم يحز صوفه من سنين طويلة، وعوادم السيارات التي ترقق في شارع «بور سعيد» غير عابئة به تهجم على منخاريه وقمه المفتوح طيلة الوقت، وتصنع أمام عينيه الكليتين غلالات تحجب عنها وجوه المارة ونصف أجساد الجالسين على المقهى المواجه.

العيال ينادونه: «عم خليل»، ورواد المقهى إن جاءوا على ذكره يقولون عنه: لا أهل له، وكما ترسو الرمم العائمة في النهر، رسا هنا ذات يوم بالقرب من مسجد «الواردي» وضريحه.

هنا، على هذه الكتبة المطلية بلون أخضر كالسح، أجلس أنا أمام رجل مختلف عن ذلك المتكوم على قارعة الطريق، فهو ليس مثله يتلقى صدقات العابرين، كما أن في جسده بعض ليونة، وفي عينيه بقايا أمل، رغم شظف العيش وهالك الصحة، والأهم من كل هذا أنه قادر على البوح ببدون توقف، يرش حروفه على أذان من يجلسون إلى جواره، وتسري في وجهه نضارة، كأنه يستعيد بالكلام الذي غربه بعيداً، ويهرب من نوبات السعال والبصاق التي تتابيه بضراوة.

يسعل وتغرق عيناه في الدموع، ثم يكتم صغيراً حاداً، ويقول:

- حكايتي أنا عمك «عبد الشكور» فوق الوصف.

ثم يغمض جفنيه مستعيداً مشاهد من زمن فات، وينبسط وجهه بابتسامة تصغر لها سنه، وتستريح أنفاسه، وتغادره آلامه مؤقتاً، ويحكى لي عن الشظايا التي سكنت جسده في «حرب أكتوبر»، ودمه الذي نزف

على الرمال وروحه التي كانت تنسحب مع الزيف، وعن الأيدي المعروقة التي امتدت إلى جسده ورفعت على ظهر رفيقه، فزحف به وهو يغني في عذوبة موالاً موجعاً، سمعته روحه فتمهلت، حتى تم إسعافه.

ويضحك عن أسنان مثرمة ويقول لي:

- من وقتها اتعلمت إن حلاوة الصوت فترح الروح.

ثم حكى لي عن قطار الدرجة الثالثة الذي كان يلتقط فيه رزقه، كما الطير، تغدو خماساً وتعود بطائناً.

كان يقرء بمدائح نبوية وأناشيد دينية حفظها من حضرات الذكر التي كان يشهدها في مسجد «السيدة زينب». كان يمسك الدف بيد ويضربه بالأخرى، وقدماه تنتقلان بهدوء وسط صفي المقاعد الخشبية الخشنة، وجسمه يعيل يميناً ويساراً متصنعاً الخشوع تارة، ومتفادياً باعة الشاي والغازوزة وشطائر الفول والطعمية والجبن، وكذلك الكمسري والمفتشون الذين يركبون في المحطات المتتابعة لمراجعة تذاكر المسافرين. يتوه قليلاً ويقول لي:

- لم أترك خط سكة حديد إلا وأكلت فيه عيشاً، الصعيد وبحري وخط القناة.

وعرفت منه كيف كان يبست على أرصفة المحطات المتجهمة، وعربات القطارات المتهالكة المهجورة في المخازن العارية الوسيعة، لكن يبقى أجمل ما سمعته منه هو مغامراته العاطفية. كنت أزعج الكلام ليصل إليها، فيقلب عينيه حوله حتى يتأكد من أن زوجته غير موجودة أو متلهية في أعمال البيت التي لا تنتهي، ويقول:

- تابعت الحبيبات في حياتي كزهرات الفل المضمومة في خيط متين،  
ولم تغب أسياؤهن من رأسي، أحفظها خاسية، بعد أن أسأل كل واحدة  
منهن عن سلسالها لأعرف بنت الحلال عن جاءت سفاخا.

المسح زوجته بطرف عيني وهي تتحرك ذهاباً وإياباً في طريقة ضيقة  
تؤدي إلى المطبخ وترمي أذنها لعلها تلتقط شيئاً تحاسبه عليه، لكنه  
يخفض صوته لينحدر إلى همس يموت على أذني، وأنا أسأله:

- وماذا عن أم العيال؟

يقهقه ويقول متتهماً:

- نصبيسي، والنصيب غلاب، كانت زوجة أخي الذي ذهب إلى  
حرب 67 وعاد أشلاء لمناها في كفن بسيط، ودفناها في قراة الإمام  
الشافعي، وفي الأسبوع الثاني لرحيله قالت لي أُمي:

- لم لحملك.

فتزوجتها لأبي ابن أخي، وأنجبت منها المزيد، واعتبرت أن عودتي  
من الحرب منتصرة وحيًا، ليس لأبي أفضل من أخي الذي مات مهزوماً،  
لكن لأن الله ادخرني لواجب لا مفر منه.

يدس يده في جيبه ويشرد، ثم تتحرك شفثاه في صمت، وتروح  
أصابعه وتحجيء فأدرك أنه بعد النقود التي جناها عياله، أولاده وابن  
أخيه، ويشعر أنني أفهم ما يقوله، فيقول وعيناه مرميتان في حجرة:

- علمتهم يحبوا القرش من الهوا.

(2)

قبل أن أنفض عن بنطالي ما علق به من غبار الشوارع المتربة الذي  
يتسلى في هدوء إلى «الكتبة» جاء الابن الأكبر لـ «عبد الشكور» واسمه  
«أبو عوف»، الذي يقضي ساعات طويلة في شارع «بور سعيد»  
و«السد»، عيناه ترقبان الطريق، وفي قمه صافرة، ما إن يلمح سيارة  
تتباطأ حتى يقفز أمامها فارداً ذراعه اليمنى، ونفخه يصدر نيناً زاعقاً  
يقتحم الأذان، ثم يشير إلى مكان خال على جانب الشارع.

لا ينتظر عودة صاحب السيارة بعد أن يقضي مشواره ثم يمد يده  
طالباً الأعطية، بل يأخذها مقدماً، وهو يقول في نفسه:

- «البكاء على رأس الميت».

وإذا رد أحدهم كفه الممدودة، وقال:

- سأدفع لك لما أرجع.

يتسم في هدوء، ثم يغفر فاه قائلاً:

- حتى تكون معطئاً عليها.

ثم يلتفت حوله لإيماحه بأن المكان غير آمن، ويهر رأسه في تأثر  
مصطنع:

- أولاد الحرام سرقوا كذا واحدة في الأيام الأخيرة.

فيدفع الرجل دون أن ينطق حرفاً واحداً.

خمس عشرة ساعة على الأقل يقضيها واقفاً على حواف الأرصفة، التي تتقلب بين صقيع قارس، وحر قافظ، ينقل ساقيه النحيلتين بين ضفتي الشارع بعيني صقر، ليلتقط زبائنه، ويعرف بمجرد أن يهلوا عليه أشياء كثيرة عنهم.

نوع السيارة، وشكل الهندام ومستواه، وألوان الأطعمة التي تظهر في نضارة البشرة أو انطفائها، كلها تحدد قدر الأعطية المستطرة، والطريقة التي حل «أبو عرف» أن يتحدث بها.

لصاحب اللحية: السلام عليكم.

للمحليق: صباح الخير، مساء الفل.

للسيدات والأنسات السافرات: «بونجور» و«بونسوار» و«ميرسي».

للمنتقبة: «حلت أهلاً ونزلت سهلاً».

تتغير بينهم وبينهن طرق المخاطبة: سعادة البهية، ست هاتم، شيخنا الطيب، أختنا الفاضلة، آنستي المحترمة. تلاوين من العبارات والإشارات والإيماءات تتغير حسب الأشخاص والأحوال. هكذا تعلم في ستة أشهر قضاها تحت سفح الأهرامات العريقة، لكنه لم يستمر هناك بعد انهيار الموسم السياحي تحت ضربات جماعات إرهابية وزعت الدم والنار والأكفان والعويل على بقع ومواقع شتى.

كان مضطراً إلى أن يعطي ظهره لثلثات الأحجار العالية المضلعة الوافقة في قلب التاريخ، ويأتي هنا إلى غابات الأسمنت المتجهمة الواقعة عن يمينه، والجدران المتهاكة الكالحة التي تحني على يساره، ويجلس

أبوه بين أربعة منها، وصوت سعاله الحاد يفترق المنعرجات الضيقة، ويأتيه حين يبدأ الشارع، وتنصت السيارات الباحثة عن مكان.

يسميه أبوه «أبو كلام» ينطقها أحياناً على مرحلتين بينها شهقة وسعلة وتمخط وسفر مقلتين رجراجتين في معجريه، وقد يضيقها ويسترسل في التوصيف والتسكين بلسان طليق.

وحين يرى ابنه قادماً يقول:

- ورت عني حلاوة اللسان، هي مفتاحه لأبواب كثيرة مقفولة بترابيس من حديد.

ثم يغمض عينيه قليلاً ويواصل:

- لكن لسانه لا يساوي شيئاً إن حضر لسان «سميرة»... اجتمعت فيها الغزالة والنمرة، كيف؟ لا أعرف.

ما إن ينطق باسمها حتى يخفق قلبه، ويفلق جدران صدري، ويسبح هائماً في المكان، ثم يقلت من الظلمة الراكدة تحت الخوانط والروائح العطنة، ويجري في الزقاق إلى شارع «بور سعيد»، ومنه إلى شارع «المبتديان»، ثم يعبر شارع «قصر العيني» إلى حي «جاردن سيتي» العريق، ليصل إلى هناك على كورنيش النيل، يحوم حول ذات الوجه الملائكي التي تبيع عناقيد الفل والياسمين للعشاق العابرين.

حين رأيها أول مرة خطفت روحي، فذهبت خلفها وفي عيني تحط شمس العصر المائلة في استحياء على هامات الشجر والنباتات وتسكب في قلبي دفناً، وتمتخ خطوات فتاتي التي أنقصها ليونة تتأرجح في صدري.



يحلولي أن أرمي نظرات عجل إلى وجهها الرائق لأنعم بسحره  
الأخاذ. طبق تضاح هو، نائم تحت قبة من الخوص، تمنحه هدوء الظلال  
ووداعتها، وأسأل نفسي حين أكون وحيداً تحت السقف المهتر الذي لا  
يقيني مطر الشتاء:

- هل خلقت لأقع في غرامها فقط؟

وأحياناً يأكلني الندم على أنني همت بها على اتساع المسافة بين ما  
أذهب وما تذهب.

كانت بنت سبع عشرة سنة، وأنا أكبر بست سنوات على الأقل،  
وبينا فروق شاسعة في الانشغال بالكتب، هي لم تحصل إلا على الشهادة  
الابتدائية، وأنا في أول عهدي نحو درجة الماجستير في الفلسفة، وأكلت  
السطور عيني، لكنها لم تغمها بعد من النور الذي يكفي لأرى جاهلها كما  
ينبغي لروعة أن تُرى.

حين يراها أبوها قادمة بعيد العشاء، يملأ عينيه الكليلتين منها  
ويقول:

- من عشر سنين وهي توفر لقمته... بنت بئثة رجل.

يقبل يديه بصوت عال ويترك على بطنها وظهرها بعض لعابه،  
ويقول:

- عشقت جيلات كثيرات، وطلبت من الله أن يمنحني واحدة من  
صلي فكانت «سميرة».

يحكي عنها بشغف، ويرش حروفه على قلبي، فأسمع نبضاته،  
والمحها تراقص في عروق الجزء المكشوف من ساقه، بعد أن انحسر

عنها بطلالي. يرمقني هو بنصف عين مغلفة، ويفحصني كرجل خبير  
بالناس، فأشعر أنه يعرف كل ما يدور في نفسي. أختبئ منه، وأندثر  
بشرودي الطويل، ومحاولات تغيير دقة الكلام، لكنه يعيدني دوماً وهو  
لا يعمل من تكرار:

- عاززة ولد همام، شارب من لبن أمه.





(3)

المرّة الأولى التي رأيته فيها كنت أسير إلى جانب السمسار وهو يرسل ناظره يجرّان النوافذ المتبعجة المتعلّبة حين هلت هي كصح وريدي يهيج، تسبقها ابتسامة وعجيب يشير حذاؤها القديم.

رفع وجهه إليها وسأله:

- هل عزّل ساكن السطوح؟

ردت دون تمهل، وفي حياد واضح:

- رجع بلده منذ أسبوع، ولن يعود.

وهبمت بكلام لم أثبتيه، بينما وجهها يتضج بحمرة غضب، سرعان ما غابت في دوائر من الاشتزاز الظاهر.

مقابلة قاسية، صدمتني أنا القادم إلى هذه المدينة حديثاً ولا أريد أن أعود.

فأل سيع أكدّه السمسار دون أن يدري، حين علّق عينيه في الفضاء القريب المغبر، وقال:

- سكنها كثيرون ورحلوا، لكن حالتها جيدة.

ودفع قدميه فسرت خلفه وأمانا الفتاة التي أعطتنا ظهرها فلم أعد أرى تفاح وجهها، وهجمت علينا رائحة نتنة كادت تخلع أنفي، فمددت يدي وسددته، ورأيت كلباً يجري وفي فمه كيس بلاستيك

يترجرج وتتساقط منه قطع عفتة، كان السمسار يدوسها دون اعتناء، وواجهتنا ساحة ضيقة بها حنفية مياه يقف عندها كلب أسود ضخم، ويمد بوزه ويرشف القطرات النازلة من الصنبور، بينما امرأتان قادمتان من الناحية الأخرى وكل منهما تحمل علبه صفيح ضخمة فوق رأسها. وراحت إحداهما تسرع الخطى لتبعد الكلب، فجري بعيداً، ودفعت هي صفيحتها إلى فوهة الصنبور وأدارت ذراعها الحديدية، فاندفع الماء غزيراً، وبعضه يتقاطر بكثافة على قدميها اللتين جردتهما من الحذاء.

كدت أرجع دون أن يشعر بي لولا أن التي تمشي أمامنا التفت وأرنتي تفاحها، وابتسمت هذه المرة، وقالت بصوت هزنتي طلاوته:

- تفضل.

عند باب بيت وقف السمسار وأنا خلفه، بينما دخلت هي، واختفت في دهليز مظلم غشاها غمائم، فشرعت في هذه اللحظة بافتقادها، رغم أنني لم أرها إلا منذ دقائق.

راح السمسار يدق سلام يتعانق فيها الخشب مع صفائح خفيفة من الحجر، وأنا خلفه بدقات أكثر حدة، حتى انتهينا إلى فراغ ضئيل يفتح على الساعات الزرق، والشمس قاقعة الصفار، وسمعت قرقرة دجاج، وصياح ديك، وهديل حمام، وأزيز زناير غمرق، من أمام أنفيها ذهاباً وإياباً، ولمحت عيني شيئاً لمع في شعاع الشمس ثم اختفى تحت كومة كراكيب.

تقدم فتبعته إلى مربع صغير من جدران طمي طلاءاتها مقشرة، والثقوب غير المتساوية موزعة بلا انتظام على صفيحتها. وحين وضع يده على الباب سمعت أنيلاً، لكنه طمأنني:

- زعيق الخشب القديم.. والمسامير الصدئة.

لكن في ليلتي الأولى سمعت نهش السوس، يخالط ديبب النمل، الذي نشط بحثاً عن فتافيت الطعام المهمة. تركت له القرفة، وخرجت إلى السطح، فتعثرت قدمي في فتران وجرايع ترمح، إلا أن كل هذا ذاب حين اقتحمني غنج امرأة تضاجع الصمت.

سمعت صوتها فقط، ولم يأتني صوت ذلك الذي يروي حرقتها. كانت تكتم صرخاتها، وتشق وتصبو صفيراً مشبوحاً باللذة.

ألقت هذه الأصوات في الليالي التالية، وكنت أشعل شبقاً كلما جاءني، بل إنني استرقت إليها السمع. وحين كانت تغيب كنت أطفئ اللبنة المعلقة بلا عناية في السقف، وأزيع النافذة المشعة، وأشرف أدني في وجه الظلمة المنقوبة بأنوار شبحية، تبعثها لمبات محطة مترو «السيدة زينب»، وكوبري «زينهم» أو الأصواء الهاربة من ثغوب البيوت المتهاكة التي تحوطني، وتحملني على اكتافها.

كل ليلة كنت أفعل هذا وأغرق في اللذة. وفي الليالي التي تضن عليّ بأصوات البهجة الموجعة، كنت أغمض عيني، وأستعيد ما جرى، بينما روائح البانجو والحشيش تملأ أنفي، وتسحبني قليلاً نحو ما لم أكن على اتلاف معه.

صوت يحضر أم صدى؟ لا أنشغل بهذا، سيان عندي، وكان عليّ أن أعرض الفارق بين الواقع والخيال بمساعدة جسدي على الاشتعال. كنت أكل نفسي، وأسقط جثة خامدة، لأن الطعام الذي التقطته على مدار اليوم لا يساعد بدني على إشباع لهفته المتجددة.

وحين أفتح أياً من الكتب القليلة التي اصطفتها معي تقع هذه الأصوات في أذني، وأشرافياً يجري وراء الجدران المتداعية، أتخيله، وفي الخيال إجادة، وفيه تحليق هناك في الأفاقي.

لكنني مع «سميرة» عرفت لذة أخرى، إنها لذة الروح، ومعها لم أعد بحاجة إلى الجلوس عند النافذة لتسول الشهقات الحارقة، بل الاستلقاء فوق سرير ضيق، يكاد يلتصق بالأرض الأسمنتية المملوءة بالخفر، واستحضار الوجه الملائكي، والصوت الرخيم، والخطوات الجلدة لآلة الواتقة.

كان هذا في البداية، ثم عوضني قليلاً عن افتقادي لجسد ناعم، أجرب معه بعض شقيقي، وأدخل به إلى عالم جديد عليّ.

لكن كيف لي بها وحوها هذه الأسبجة؟ إخوة يقفون أمامها وخلفها، وعن شأها وعن يعينها، كحرا ب غليظة مسنونة، على جنباتها البرومة أشواك متأهبة.

إخوة «سميرة» الذين لم أكن أحسب أن لي معهم أياً ما لم تحظر على بالي حين كنت هادئ البال بيلدي الجائفة في وداعة على أرض خصبة نظيفة.

- النشال والبلطجي يشت صحتة موضع مطوأة قرن عرال في جنبه أو على رفته، وقد يكون مسدسًا محشورًا حتى فمه، فيخرج له كل ما في جيبه حرقًا على حياته.. أنا أخذ جزءًا قليلًا مما في جيب من أقصده وهو راص، وحياته في أمان. - البلطجي يجعلها مرة كل يوم أو أيام، والنشال قد لا يتمكن إلا من تسليك حفطة من جيب موظف علان في لأتوبيس، أو أخذ من عشرات لأثرياء والمستورين، أكثر مما يحصله النشال والبلطجي، وأنا في أمان. \*

ثم يقهقه ويمسحني بعينه من قدمي حتى ناصيتي، ويقول:

لا مؤاحضة، أنا لا أقصد تخويفك مني، فلا أب ولا أمثالك الذين لا يمتكمون على عشبهم، لكن أصحاب الجيوب المتعوخة، وانكروش المحشورة فيها ديوك رومي واستاكور، وويسكي استكتندي معتبر يصمت برهة ويعدها يلخص الأمر كله:

- محتال يتسول من لصوص كبار.

وكت قد أخطأ معرفة «حسونة» في أول عهدي هذا البيت الذي يريد أن يقصص، حين رأيت كومه من الحرائد والمجلات ملقاة إلى حذب الخائط، ونحوم حولها ذبانتان، ثم تحطان وتلتصقن في صمت. سألت فعرفت أنها له.

وقتها تحيلته يرندي نظارة سميكة، وأشار القراءة موزعة على كلامه ومشته وسحته، لكي عرفت أنه يشتري جرائد قديمة ليقصص صور المشاهير، ويدسها في جيبه، بعد أن يكتب بحظر ريك أسماه أصحابها في الخلف، فوق ما يخرج مع الصورة من سطور الصفحة الخلفية، أو يكتب

يعود «أبو عوف» مهدودًا، يظل من عيبه سلام، لا يتواءم إطلاقًا مع ملائحة الخشنة. أما «حسونة» فعلى النقيض تمامًا، يضح شرًا لا يسعه جسده النحيل من الإفراط فيه المرة الأولى التي رأته فيها كان يرتج في ريح متردة هبت فجأة، وتفتح قميصه، وصدت ساقيه، وكادت نظيفه أرضًا.

كنت على حذر دائم منه، وأشعر أنه يراقبني مع فائض الوقت الذي لديه فعمله فقط هو الذهب كل ليلة إلى مسجد «عمر مكرم» بعد صلاة المغرب، ينتظر كبار المعزين، لبدأ مع وصلات من المديح والتودد تمكنه من أن ينال ما يريد.

ما إن يدمج صاحب أحد الوجوه التي رآها في الصحف أو التلفزيون حتى يجري إليه ويناديه باسمه، بعد أن يسبقه باللقب «دكتور» و«أواء» و«مهندس» و«أستاذ» ثم يتبع ذلك بـ «يه» أو «شاه»، وقطعًا يلحق الاسم والترتبة بكلمة «العظيم».

كنت أسمعه يقول لأبيه وهو يمرغ في يده بعض النقود التي التقطها من ناداهم:

- أئبهم لكن بطريقة محترمة.

وحين سألته ذات مرة عما يقصد رمائي بشر من عيبه الصيقتين، وقال.

تحت الصورة نفسها في الأغلب لم يكن مضطراً لهذا لأن الصحيفة والمجلة تطبع الأسماء تحت الصور.

يرتبط الصور في علبة صفيح متوسطة الحجم، يحلو له أن يجلس ساعة من كل أسبوع، ويعردها أمامه، مجموعة تلو أخرى، ويتفرس فيها ملياً، وينظر إليّ ويقول:

- أخرجني أبي من المدرسة فكتب عليّ أن أذاكر الصور.

يلتقط أحياناً «ريموت» التلفزيون الملون الذي اشتراه هو، ويُقَلِّبُ القسوت، فدون رأى شخصاً متأثراً، ومتفح الأوداج، يتوقف أمامه، ويرفع وجهه من على الشاشة، ويرصه في رأسه، ثم يشته. وحين يُكتب اسمه تحته في شريط رفيع يلتقطه «حسونه»، ويكرره عدة مرات، ثم يطيل النظر إلى الصورة، ويشتهها بمسافر طويلة في ذاكرته، التي صارت سجلاً لعلية القوم.

يحرص كثيراً على أن يحفظ جملة أو يعرف موقفاً لأحدهم، وفي الثواني المتاحة له أن يقترب منه أمام مسجد «عمر مكرم» يكون قد تفتق بها، فتذوب المسافات، وتمتد الأبدى، وتلين القلوب، وتفتح الجيوب. مع الأيام صار معروفاً للخارجين من العراء، والداخلين إليه. بعضهم يمد الأعطية دون أن يكلفه عناء التذكر والكلام، وبعضهم يتلذذ بالأوصاف التي يطلقها «حسونه» فيطرق برأسه، مشفقاً أدنيه، وهو يقول في مره: «أزد وأطربني يا ابن النصابة».

لكن السيارات العارضة، والبذل الفاخرة، والساعات باهظة الثمن، والأحذية التي تنهوج عليها فتاديل الشارع، وروائح العطور المعتة، راحت تستقر في رأس «حسونه» بمرور الأيام، فرادت أوجاعه، خاصة

في الليل وهو منقلب مهذأ على الكسة التي تتأرجح، فتصدر صريره، حاداً

كان مولعاً بأن يخصص كل شروده في المقارنة بين حاله المتعيس وحال هؤلاء الذين ينظرون إليه بأطراف أبوفهم، وكأنه حشرة مرعجة، حتى وهم يستمرثون مديحه اللزج.

لهذا لم أره يوماً يصح، أو يربس ولو حرة، صلياً من التأفف الذي يسكن ملاحه. وبمرور الوقت راح يجمع نثار تكبرهم، ويرشه على كل من يعرفه من أهل «تل العقارب».

وبلت أنا نصيب وفيراً من هذا النثار العفن، وكنت أهشّه عن وجهي في صمت، لكن درات مسوداء راحت تتركب في قلبي نحو «حسونه» وكنت أحشى أن تنصر حصاة، أقذفها يوماً في وجهه، فأعرض للإبداء لا طاقة لي به.

الأسمر ويلمع بالعرق الذي لا يراى يتصعد من مسم جلدته، رغم وحين الشمس وبعض التساقط الطرية التي يجود بها النيل.

أراه كل يوم تفرسًا، في الذهب إلى «حمامة لقاهرة» وفي لإياب. أحرج يدي من شاك «ليكر وباص» إن كنت خالسا إلى جانب النافذة، وأجيبه بصوت عال:

- خلي عنك يا «عزاري».

ويرد كل مرة:

- تسلم يا أستاذ.

سهجي كلمة أستاذ، مثلما يعتبط الدين يسطون من سيارهم المارحة عند مسجد «عمر مكرم» من طراء «حسونة»، وأشعر أن «عزاري» يزيل عني بعض الخوف من الاقتراب أكثر من «سميرة».

«سميرة»

السميرة، «سميرة»، وحبي وسهجي، مناهتي وملادي، في هذه المدينة التي لا تريد أن تأخذني بين ذراعيها العملاقين.

سعبت وراءها ذات عصر، وهي نشق الشوارع بعناقيد المل والياسمين وعصي الورد للدي الأحمر سقته بقطرات صامتة ولم تشعر بي. ولما وصلت إلى الكوريش خففت ساقى، فمضيت بعيدا عنها، وحلست على واحد من المقاعد الحجرية الطويلة المستطيلة الموزعة بانتظام، ليريح العاشقون والضائعون والمهاربون من حميم الغرف الضيقة المقبضة أجسادهم عليها.

كنت في البداية أحادر في الاقتراب من «سميرة» ولم تشجعي أبدا معاملة أخيهما الثالث «عزاري»، الذي كان غاية في اللطف والأس معي، رغم أنه أكثرهم معانة.

كان يستيقظ في الكور، محطف كرتونه المتاديل الرائدة تحت الحدار، إلى جانب جرائد «حسونة» ومجلات، ويملا نظنه من عربة القبول الواقعة تحت كوبري «ريهم» ويعبر إلى الناحية العربية، حيث معارق الطرق على الفرع الصغير لنيل، الذي يكون قد انتهى لشوه من تطويق جزيرة «الزمالك».

يحسي عند مدخل شارع «قصر العيني» أمام نوافذ السيارات الواقعة في الإشارة، ويعرض بصاعته الرخيصة سائق واحد من كل مائة على الأقل يتسم له، ويمد إليه الثمن الرهيد، ومحطف علبة المتاديل قبل فتح الإشارة البعض لا يكون جاهزا وتستعجله أبواق السيارات فيرمي الخنبيات على الأرض، و«عزاري» لا يستطيع التقاطها إلا إذا هدا الطريق أو أعلقت الإشارة من حديد أحيانا يبيع الهواء فيطيرها بعيدا. وهناك من يأخذ العلبة ولا يسمعه الوقت لفتح تابلوه السيارة والتقاط ثمن ما أخذ، فيمضي بغنيمة.

تدور الشمس على حبيبه وهو واقف طيلة النهار، صبح، عصي، وظهر فعصر حتى المغيب، وفي الليل تحط مصابيح الشوارع على وجهه

أرسلت بصري ليحوب امتداد النبل في الشاطئ الغربي، ويحيط على  
العمارات الشاهقة، ثم ينزل إلى التوادي المتساعة السائمة في حصن المياه.  
وحين ارتجف قلبي شعرت أنها قد اقربت مني، فطرت بطرف  
عيني، فإدائها تبع وردة حمراء لشباب طويل القامة، يتأبط فتاة، يشرق  
وجهها بانتسامة عريضة، لكن شيئاً آخر يعثي خلفه مع فتاته، هرل  
«سميرة» رأسه رافضاً قلها ووردها، ولم يعرها أدنى اهتمام  
ثالث قال لها ضاحكاً:

- خلاص تزوجنا والحمد لله.

تقدمت خطوات، وانفتحت عن شيئاً فوجدتني جالسا اتسعت  
حدثتها، فاردت عيها روعة، وابتلعنا وجهها الضير انترعت  
أب كل طاقات المحاكاة المدفوعة في نفسي، وقلدت الدين يدون دهشه  
عارمة، فاندلشت، وانطلت عليها اندهاشتي.

- «سميرة» !!

ملأت عينها مني، وسألني عن سبب مجيئي إلى هنا، وبانت في  
كلامها تلخيصات لم تخف علي، وقصرت المسافة أمام لساني، فقلت لها:  
لم أحد وليفتي بعد.

وأنتسها كلمة «وليفة» فاشتعلت البهجة في وجهها، ومدت يدها،  
لتعدل وضع قبعة الخوص التي تهرها السائم قليلاً، وقالت:  
- أعلم أنك تلميذ.  
ضحكت وقلت لها:

- تلميذ هذه تقال لأطفال المدارس .. أنا طالب دراسات عليا في  
«جامعة القاهرة».

اعتراها خجل وردت:

- منكم نستفيد.

وصممت برهة وسألت:

ما دراستك؟

أجبت مبسماً:

- فلسفة.

هرت رأسها، وبان عليها أنها لم تعرف عما أتحدث، لكنها عدت إلى  
ما بدأت، وصرحت بما سبق أن ألمحت إليه:

- هل تنتظر أحداً؟

- لا.

ابسمت، وحفّضت عينها بعد أن ضيقتهما قليلاً، وسألت من  
جديد:

- أنت تدور على وليفتك؟

اهتز قلبي وتلعثت:

لا لا . أبداً، أنا أشم الهواء.

أحدثت فرقة حفيضة من شعتيها، وقالت:

- عندك حق، أحسن من الخنقة التي نعيش فيها.

نظرت حولي فرأيت العشاق يتقاطرون، ذكرًا أو أنثى، أبى وذكرًا،  
وهم يمشون المويسى، متجاورين أو متشابكي الأيدي، وفي عيونهم  
اللق. وعدت لأنظر إلى ما بيدها، وفي حضنها، وقلت:

- أسف، عطلتك عن شغلك.

لوت شفتيها في امتعاص، وندت عنها نهيدة، تأوه لها قلبي، وقالت:  
- أشتغل من عشر ستين وزهقت.

ومسحت ما تيسر لها من طول «الكورنيش» وعرضه في نظرات  
شاملة، تحاول أن تقاوم دمعين تتأهبان للسقوط تحت قدميها، وقالت:  
- كبرت ولم أعد قادرة على مواصلة هذا التسول الجميل.

ووجدتها تجلس إلى جانبي وتمتص قلبها، وتخرح كل أو جاعها  
وتضعها على كميّ حكمت في أنساب وعمق، يقدر آلامها الممتعة، وكان  
تبعث عيسيه لتعانقا المياه المسانة في هدوء، وتعود إلى تحت قدميها من  
جديد.

وأدهشني ما نطقت به، ويأتني في هذه اللحظة فيلسوفة لا تعرف  
أنها كذلك، أو ربما تخمن أن تكون هكذا. بدت بما قالته أنضج من  
سنتها كثير، ووجدت نفسي أشرد في كلامها، حاصة حين قالت:

- حين تمديدك للعشاق بالورد والمل طالبا صدقة، فأنت تسول  
بالجمال، جمال الورد، وجمال الحب، مثلي كان أبي يجعل بصوته الخلو،  
ومديحه الرمان.

ولما اتسعت حدقتي عجبًا، رأته هي ما يدور في أعماقي، فقالت

- لا تستغرب، فقد تعلمت هنا ما لا يتعلمه أبناء المدارس. كثيرًا  
ما سمعت كلام عزل، يمس به العشاق أو يصرحون، ورأيت رؤوس  
النات مائلة، وعيونهم معمصة من السعادة، كما سمعت كلام عتاب  
والدموع حاضرة، ووقفت مرات عديدة أمام شباب وشابات يشكون  
الحجر والقراق بصوت عال، دون أن يدروا شيئًا عن الذين يمرون من  
أمامهم.

وظهر عشاق يتناوبون بين جذوع الأشجار العتيقة الواقعة في محاذة  
النهر، فتتحرك داخلها ذلك المتأصل بحكم حرة السيى والحاجة،  
ووجدت هي قدميها تتعدان عن مقعدي الطويل الصلد، رفعت يدي  
ملوحًا بالسلام، فخطفت انسامه من طرف روحها، وألقته في وجهي،  
وكان هذا يكفيني.

نعم يكفيني، على الأقل وقتها ...



حين عدت قيل المغرب سمعت جلبة عارمة تندفق من البيت الذي أقفل فيه، ونسبل في الزقاق الصيق إلى سر شارع «بور سعيد»، تختلط فيه ثلاثة أصوات، أحش متعثر، وجهور سالك، ورفيع كشفا عتر عجور. ولم يكن من الصعب علي أن أمير أحدها، كان صوت «عبد الشكور»، يضغط على حنجرته الخربة، كي يوبخ أحداً بالأفاظ جارحة:

- أنت طرطور وحيخة واعم زي البات. يا ليتني ما حلفتك يا عار، غور من وجهي، لعنة الله عليك في الدنيا والآخرة.

وهر شتاتمه تلك عني فل أن أصل إلى البيت أن أعرف مع من يشاخر، لكسي تعحت لأن ما عت به المشوم، لا يطبق على «أبو عوف» ولا «حسوبة» ولا «عراري» وحين أطل وجهي من مدخل البيت رأيت شاباً ممشوق القوام يقف أمامه، واقتحم أدني قول الروحة.

أرحم عظم التربة، مهما كان هذا ابن أخيك، وأحو أولادك، وأقرب واحد لبتك حبيبتك.

ما قالت حله يداً، فرمى ثقله على الكتبة صامتاً، هارتجت وكادت تسام على جنبها لولا أن مسدها الحائط، وراح شحير صدره ينوب عن لسانه في إيداء الغضب المكتوم.

رأني الزوجة التي لم أكن قد عرفت اسمها بعد، فقالت مرحلة.

- تفضل يا بني.

لكسي عصضت بصري، وهممت أن أصعد السلم، وأنسلي بأزيره حتى أصل غرفتي، فقوجت بها تقول:

- لارم تقعد معنا، لتهدئ عك «عبد الشكور».

استلوت عائداً، وجلست إلى جانبه، ووضعت يدي على كتفه، ورفعت عيني لتجوب حسم الواقف أمامي، وقبل أن أسأل عما يجري، بظقت الروجة، وهي تشير إليه

- ابني «عاطف».

والثقت إلى زوجها وأكملت:

- وابن «عبد الشكور» أيضاً.. ابن أخيه لازم يبقى ابنه.

كان صدره قد كف عن الشحطة، وانتظمت أنفاسه، ورنأ شاوراً في شيء لا أعرفه، وفضحت دموع من عييه، وأشار بيده إلى «عاطف» أن يذهب بعيداً عن باظره، فصمى إلى الرفاق، لكنه تعثر عند العتبة في حجر صغير، يستقر على جانب مرقعة من صحيفة، كسستها الريح، فامتلات ملامح «عبد الشكور» بالعطف، وقال.

-- خلي بالك من نفسك يا بني.

ثم غرق في سعال حاد كاد يبلع صدره، ومديده إلى فوطة متسخة نجاسة، فمسح فيها لعابه. وحين التفت ليعيده إلى مكانها لمحت في حده شامة، لم أرها من قبل إلا في وجة «سميرة»، لكن شتدين الاثنين، تلك التي تعجب في التجاعيد والصفرة وما أثاره الزقاق من غبار، وهذه التي تربع الأبيض الأحمر، والأحمر الأبيض.

قامت لأختي بنسي سارحا في مائة العمل، لكنه أمسك طرف قميصي، وقال:

- اشرب الشاي معي.

وكعادته فتح باب الكلام، هذه المرة عن «عاطف»، وعرفت أنه غير راضي عنه. يخيم وجهه بسحاب غضب مقيم ويقول:

- عامل فنان بسلامته.

وعرف من أن «عاطف» من أولئك الذين يجدهم الناس أمامهم حين يدخلون الملاهي والحدائق العامة المنوحة، يرتدون فرو دب أو أسد أو حذاء سميك هيئة قمل أو زرافة، ويتقدمون متأرجحين من فرط أحراجهم بالأطفال، يداعبونهم ويلاعظونهم ويسحبونهم إلى مساحة هجينة، فيرقصون معهم، وقد يشدود فرائهم، ليحتبروا ما إذا كانوا حتى أسود ودسة وزرافات أم لا؟ بعض الأطفال العدواني يصرخونهم راحت، الأيدي أو يركلوهم بأقدامهم الصغيرة، وهم يصيحون تندبا، أو وهم يتميرون عبقا من هذا الكائن العجيب الذي خرج من العتبة إلى الملهى أو الحقيقة.

عرفت من «عبد الشكور» أن «عاطف» يحلم أن يكون ممثلا شهيرا، ولذا يعارض وحوشه الممثلين الكبار على أفشيات السينات، ويجمع معلومات عن الذين صعدوا الحل من بينهم، حاملين فوق ظهورهم المكشودة أنفاس سبين المقر والعرة، زاحفين من الشوارع الخلفية، التي تمنطى في كسل بين سايات متداعية، وشقوا الطريق إلى الميادين النفسية، والأبراج الشاهقة.

كانت تروق له أكثر الأفلام التي تنتقط حكاياتها من الحارات والأرقة والعطوف المسية، وتصعها بالود راجية، ترشها على البيوت والوجوه كاميرات، تعتمد بصوب نورها ودفعها إلى كل الديس سيطفون حروفهم وطلالهم في الأثير لتملأ أسماها وأنصارا، وتطف قلوبا وعقولا، وتفتح أفواها اندعاشا وشغفا.

يمشي أحدا مطاطا لرأس، غارقا في أحلامه، حتى يصل إلى مبنى «دار أهلال» فيعطف يمينا، لتصد مدرسة «السبية»، فيميل يسارا، ليدخل إلى حي «الناصرية»، حيث تهجم على أنه روائح أحشاء الدنانح السمية التي تقف في الرين، والكوارع التي تعي في ماء دسم، ودخان الشيش المجهد التي لا توقف ليل همار، وتهجم على أدبيه أصوب محطة خارجه من شاشات ورقاء موزعة على المقاهي المتلاصقة، مريضة بأجهزة «فيديو» مختلفة الطرز، تقيض في أجوافها على شرائط للأفلام الحديثة التي رفعتها دور العرض السينمائي قبل أيام أو قبل سبب قليلة، وما بينها عشرات القصص ومئات الأدوار، يحمق فيها الخالسون، من صابغية وأقنذية ومشردي وعواظلية، بعضهم أكل شارب متصرح طيبة الليل وجرة من آخر النهار، ليدفع في أيام ما كسبه في أسابيع.

ما حكاها في «عبد الشكور» عن «عاطف»، دون أن يعطي لسانه فرصة للتوقف لأخذ قسط من الراحة، جعلني أفهم أنه اسم على مسمى، رقيق الحال، وحيون وحالم، يحفظه من واقعه الناس خيال جامع، يخلق له بعيدا عن «تل العقارب».

وسأله:

- هل تكره طموحه؟

غمغم في ضجر، ورد:

الولد يمسك في حبال دائية، وأخاف عليه من حصاد الأوهام.

بمد بصره في عمق العتمة التي ابتلعت السور عند الحدار، ويطمن إلى أن زوجته ليست واقفة تكتصت عليه، ويواصل:

إحونه بكسون أكثر، لا يعيشون في أوهام فارعة لم يكن هناك أحل من صوتي، لكبي لم أفكر في أن أكون مطرباً، ولو في أفراس الرعاع صممت برهة فقلت له:

- ليس الطموح حراماً ولا عيباً.

نفع وترحزح فازت الكنية من تحته، ورد:

- ليس طَمُوحًا من ينتظر الصدقة.

ولما ناد في عبي عجب من كلامه، كما سبق أن تعجبت من كلام اته «سميرة»، ربت كفي وأسعفتي، وأنا أقص ببطالي مستعداً للصعود إلى عرفتي:

- لا تستغرب، تلطمت طويلاً فتعلمت كثيراً.

(7)

كنت أريد وقتاً للشرود في وجه «سميرة» وجسدها اللين قمر يشرق على النيل في نهارات دفينه. عود حيران يتنوى في دلال، ويثم الأرض يمساً ويساراً جرباً وراء عشاق لا يزالون يؤمنون بأن وردة واحدة تغني عن آلاف الكلمات.

كان الليل قد كتم أنفاس البيوت الخفيفة، وتسبلت أنوار كويري «ريهم» ودخلت من خروم الدفدة، وجاء معها ضجيج السيارات، وباعة الفاكهة، وثرثرة الخالسين على المقهى المتجاورة في مدخل ميدان «أسو الريش»، واحتلظت بأصوات شجار مورع على أكثر من بيت، رجالاً ونساء، أولاداً وبنات. امتزجت الأصوات بروائح الطعام الرخيص.

ولأنني أريد الاحتلاء بوجه «سميرة» وسيرتها القصيرة معي، أغلقت النافذة، وسددت خرومها بسورق حرائد، وأطشأت مصباح العرفة لأبعد عن وسادتي كتابين مدفونين تحتهما مد الليلة الفاتية، حتى لا يشغلني شيء عما اعترمت أن أعيشه، وأتألهذ به.

رأيت وجهها مرسوماً على كل جدر، حتى «الشامة» فاحمة السواد باسماً أمام عيني، كحبة ثوب ناصجة، شاردة من عصص طويل يهتر وديعاً في ضوء قمر الليلة الرابعة عشرة من الشهر العربي.

رأيتها ومددت يدي لأقطفها في لفة واقتان، بافحاً في حظاتي البسيطة معها، لتصير وكأنها عمر بأكمله، أو هكذا تميت أن تكون.

تمايلت أمامي في خفر، وكأنها تقطع الخطوات بحوي بصدورها الناهد، على جناح الريح الطليقة. وجمح بي الخيال فأردت أن أقشر عنها ثيابها، وأنعم بالياص الأحمر، إلا أنني لم أقدر، بل ردت عليه ثوباً جديداً، وتعلقت بروحها.

نعم روح «سميرة» هي التي كنت أحاول أن أرى.

( ١ )

كان لا بد من أن أحصل على عمل لأتقن ها، ولا تلمطني القاهرة  
بفسوة وجحود، وترميني على أول طريق الصعيد، حسرتي أمامي،  
والمرارة خلفي، لأعود إلى أحضان من يحاولون إحياء الأمل بين  
حوانحي، حتى وهم يدرفون عليّ دموعًا حارقة، أمي وأبي وإخوتي،  
وأعود أيضًا إلى من يحفرون في يأس ليقتلني، وهم يصحكون من  
اعياقهم.

نعم قأنًا في قريتي الراقدة بين الجبل والماء تتحسس صدرها الصئيل  
تحت الشحس الهية لي أصدقاء قليلون، وأعداء كثيرون جداء بحكم  
ما أنيه به عليهم، وللشباب فتوته وعروره. وما كنت أتباهي به ليس  
الذي يشعل سائرهم، الحسد القوي، والعروة، والألدة المطروحة على  
يمين النهر، والبيات اللاتي يكتس الخطابات سرًا، ويرسلها مع خالات  
وعبات وصديقات مأمونات على الأسرار الدفينة، بل ما تباهيت به  
شيء آخر، إنها كتيبي الفلسفية التي أمدتني بأفكار عميقة لا يعرفون  
عنها شيئًا

كس أهيمن على وجهي بين الزروع حتى أصل إلى شجرة النبق، التي  
يربط أبي فيها حاموس العصفاء، وحمارنا الذي يعانني عرجًا خفيفًا في  
ساقه الخلفية اليمى، ونعجتين وخروفًا أقرون، وماعزًا واحدة جلجلاها.

- آخر الفلسفة شبل الزلط.

وينظر إليّ من طرف خفي ويقول:

حتى لو اشتعلت بالملسة فعرته في شهر سيكون أقل مما أكسبه أنا في يومين.

وكت أعزو موقعهم هذا دوماً إلى الحقد الذي يشتعل في نفوسهم، وأن مد أن نعلمنا كعب بمسك القلم كنت متوقفاً عليهم في كل شيء، في الدراسة، وإشاد الشعر، وقراءة حكمة اليوم في الإذاعة المدرسية، وتمثيل الأدوار الصعبة مع فريق مسرحي حصلت به على جائزة من محافظ «سوهاج»، وحتى في الغناء، كان صوتي هو الأحسن بينهم، وكت لأحبل عليهم به إن طلبوا مني أن أصدح بأغنية يحسبها، حين كان بعضهم في أول العزم. وكثيراً ما طلبوا مني أن أردد مرصعات «أب عروس» كما حفظتها وراء شاعر الرماية.

انتهروا جميعاً فرصة مرضي الشديد وأن في السنة الثالثة الثانوية، والذي رآته أُمِّي عائداً إلى لعيون الصغراء التي حسدني، وتقدموا هم، وتأخرت أنا، ولم يوهري مجموعتي إلا مكاناً في كلية الآداب، جامعة «أسيوط».

عانيت من آفة تحقير العلوم الإنسانية لئني أصابت مجتمعاتنا، ومن هذا التقسيم الساذج للتعليم الجامعي إلى كليات قمة، وكليات قاع. لكن حين درست الفلسفة شعرت بأني استعدت القمة التي أزعجني المرض عنها، وصرت فريقيهم جميعاً.

حاولت يوماً أن أفهمه أن بين الفلسفة والرياضيات علاقات لا تنتهي من الورد، لكنه سخر مني قائلاً:

أحس عند الجذع وأباحي الفروع بما أعلم ولا يفهمه كل من يعيشون حولي، وينعاملون معي وكأنني كائن أسطوري جاء من أرضة حقيقة، لكنه بلا فائدة نذكر، فلا لحمه يؤكل كالدهان، ولا صوته يطرب كالكر وان، ولا شكله جميل كالطاووس، ولا ينقي الأرض من الديدان كأبي بردان أسطوري لكنه لس كالعقلاء التي تقاوم الغناء، إنما أشبه بنيت المألوك الذي يتطفل على أعواد القول ويمص عددها، وتجعل منه حتى الهائم لكس هل يمكن لست أن يكون طائرًا، ولطائر أن يكون سائًا، هكذا أنا في نظرهم، شيء بلا معنى. شيء فعلاً، لأن هؤلاء لم أصططهم في أي يوم يتعاملون مع إنسانيتي التي تعبر عنها أفكارهم المبهمة.

بعضهم كان يراني إنساناً متحلقاً، يصبر على أن يقول كلاماً لا يُرجى منه نفعٌ، ورمي في الدراسة حتى نهاية المرحلة الثانوية، والذي التحق بكلية الهندسة في جامعة «أسيوط» التي التحقت أنا بكلية الآداب فيها، أوجعني حين قال لي:

تحاول أن تعطي أهمية لما تدرسه، وهو عديم القيمة، تقول أشياء معقدة، لكنها تافهة.

وكت أرد في انفعال شديد:

أنا أتحدث مع كل شخص على قدر علمه، لكك لا تريد أن تراهي إلا متعجرفاً مغروراً.

وكان «شديد الدقش»، الذي ترك المدرسة في منتصف المرحلة الابتدائية، بوجعني بكلام يشبه الرلظ الذي يحمله عن كتبه في سابات القاهرة الشاهقة ويراهها وهي تعلو طابقاً تلو آخر فوق عتقه، وأكثر ما كان يؤلني هو حديثه عن مستقبله. كان يقهقه ويقول:

- سأنسى العجرات الشاهقة، وأتركك تهدي بأقوالك الفارغة.  
حدثته يومها عن فلسفة العمارة، لكنه ظل ذاهباً برأسه بعيداً عني،  
وعلى طرف شفتيه سخرية لأذعة، ثم مضى.

يومها فقط قررت أن أكمل دراستي العليا في «جامعة القاهرة»،  
لأغني عني، وأعد أطروحتي للماجستير والدكتوراه في فلسفة العلوم،  
لأثبت له أنني كنت وما زلت وسأظل على حق. ورحب أتاح معاللات  
الفيلسوف الكبير «ركي نجيب محمود» في صحيفة «الأهرام»، وأقول  
في فخري:

- هذا طريقي، ولو سلكته، فسيلمع اسمي.

وحين يرد علي ذهبي زميلي الذي صار مهندساً حديث التخرج،  
أقول.

سيقرأ اسمي يوماً في الصحف مكتوباً سط عريض، ويعرف أنني  
لم أكن أهدني، وقد يأتي ليحتذرنني.

ودسست في حبي كل الحبهات التي عرقت بها في عيطان الناس،  
وجئت إلى «القاهرة» من دون أن أفسى التأليل التي ملأت راحتي يدي  
من أثر سوعات اليد الخشنة للناس، ثم انشأت، ومات الخلد فصار  
صلداً، ألسعه الناس أحياناً فلا أشعر بأي ألم، ولا حتى بوخز خفيف  
وحين بدأت الرحلة لم يكن في رأسي أنني سأرى خلية روجي، هذه  
التي طالما تفت إليها قبل أن أعرقها.

لكن عني كان يقطأ وحداً طوال الوقت، وتلك مشكلتي، فالإنسان  
يحتاج أحياناً إلى أن يترك لنفسه العنان، ولو ساعه من هار أو ليل، ولا

محسب كل شيء بمقاييس يسعى إلى أن تكون دقيقة، وكأنه آلة خوف  
صماء

وكان عقلي يقول.

كيف لم جاء إلى هنا ليكون أكثر فيلسوف في البلاد أن يقترب ساعة  
ورد شبه أمية؟

وكما دقي حين أستعمل عقلي لم أفكر هذه المرة في الأسود قبل  
الأيص، بل فعلت العكس، وتحيتني واقفاً أمامها، أعبدها إلى دينا  
الخروف، ونجس معاً رتبها بعدي، وكلما نجحت تعاقباً طويلاً، وطالما  
قلت لنفسني «سميرة» ذكية، وخبرتها في الحياة عميقة رغم صغر  
سها، وهذا ليس بالقليل.

وكنت أسعد بكلام عم «عبد الشكور» عنها، حين يصفها.

الحائق الناطق أحلى حبيباتي، وكان اسمها «سميرة» أيضاً.

ويغمض عيني قليلاً ويقول:

- نعمت مع زوجتي في طلام كالكمحل، وتحيلتها حبيتي، بل في  
عملتي ولهفتي ناديتها باسم الحبيبة، لكن طعتها وغفلتها لم تجعلها  
تنس، وإلا فمرت من تحتي كأن عقرباً قد لدغها قبلها كنت أفكر في  
«سميرة»، استحضرت ملاعها في رأسي كأول يوم رأيته فيها، وحطمت  
روحني. وتزل حينني في صليبي فحملت أم العيال هذه الست، التي كلما  
كبرت صارت «سميرة».. القديمة.. حلوة بنية مثلها

ونعيت لو رأيت «سميرة» القديمة من كثرة حديثي المعجم بالشغف  
والشحن عني، كلما مسحت له الفرصة، واطمأن إلى أن زوجته خرجت



لشراء ما يعوره الدار، أو مشغولة في المطبخ الصبي، يملأ أذنيها وشيش  
البوتاجار، وقرقة الألواني يطفئان على السماع، وتغلا أنفها ورائع  
الطبخ النفاذة

وكان يأخذ راحته في الكلام أكثر إذا كانت هي قد فتحت المذياع  
ليسليها بالأعاني القديمة، التي نغمها. وقتها يشحن حجراته بكل ما في  
جسمه من طاقة، ويثرثر بلا انقطاع، ولا ينجلي شيئاً، بل يستمتع حين  
يحكي نزواته، قدر استمتاعه حين يروي مآثره.

تغم عيناه المستسلمتان للنزمن، ويقول:

- لم تمتعني أي منهم ري «سميرة»، كانت امرأة كما يقول الكتاب  
أضحك وأسأله:

- وهل لهذا كتاب؟

يقهقه حتى أشعر أن نقايا أسانه ستساقط على حجره، ويواصل.

- أهم من كتب الفلذكة التي تدرسها يا حبة عين أمك.

ثم يسكت فجأة ويشرد قليلاً، ويعود:

يقولون. «إذا نليت فاستروا»، لكنني أحكي نزواني لأنظهر  
وأفقه وأقول:

أو رب يكون التاجر قد أفلس، ويبحث في دفاتره القديمة، ينظر  
إلى ركبتيه المشتتين ويصرخ: كل وقت وله أذان.

أسأله عن «سميرة» القديمة، فيتوه ويعود صافي الذهن:

- قمر وغاب، ولا أعرف في أي سماء اختفى.

- ألا تأتيك أخبارها؟

- انقطعت من ستين طويلة.

ويرفع كفيه نحو السقف الخفيف:

يا رب، إن كانت حبة فأعطها الصحة وراحة البال، وإن كانت قد  
ماتت فأرحها وأمسكها فسيح جناحك.

(2)

كان وصف «عبد الشكور» للفلسفة بالمذلّة يشير حقيقي، وأكبح جماح بشي حتى لا أمد أصابعي العشرة إلى رقبته وأحققه أكظم عيطي، وألوذ صممت طويل، وحبر أخلي بنمسي في حجرتي البائسة، أستعبد كلامه فيجرحني:

لم يكن يقصد إهانتني، لكنه كان يذكري دومًا بأولئك الذين سحروا بما أدرس، ويعتوي بأنني رجل بلا مستقبل وحين كنت أقول لهم.

- الفلسفة أم العلوم.

كانوا يقهقهون وهم يزغون قشر القصب بأساسهم الحادة، ويقولون - تقصد جلة العلوم.

وبعضهم تطوع يومًا وفسر لي كلامهم:

- الفلسفة قديمة وعجوز خرية أشرفت على الموت.

وذات يوم صرخت فيهم.

- الفلاسفة لا تشيخ، ولا تموت يا جهلة.

فقابلوني بمزيد من الضحك، وقال أحدهم:

- أعظم البشر يشيخون ويموتون، ولا تتوقف الدنيا.

وأوجعت حنجرتي، وأرهقت ذهني في شرح دور الفلسفة في فهم لدات والعالم والكون وصولاً إلى الله، لكنهم كانوا يربون من كلامي، ويردون في نفس واحد، وكأنهم قد اتفقوا على ما سينطقون به:

- لن نتطلي علينا محاولتك تزيين بضاعتك البائرة.

كنت أنركهم يربون في سحريتهم وأهيم على وجهي في الزرع، وأن أحصن فلسفتي السكينة، وأهدئ خواطرها المضطربة، وأهمس في أذنها بامتداد شديد، بأغنية «فريد الأطرش» الذي أعشق ألحانه وأغانيه «أحكك معها قاسيت ملك، ومهيا» الناس قالوا عك!

وأنظر أن مرد علي، وترت كنتي، أو مسح دموعي، لكنها بقي على حالها صامدة.

هنا في عذاب، لأسمت لا أحد رروعا أهيم على وجهي بين حضرتها البعثة، إنها شوارع لمدينة صحمة، بحالط فيها الشر والسيارات بمختلف أنواعها وأحجامها وكلاص صلبة وعوادم وروائح بمادة سعت من المطاعم والمساهد والمخار ومحال خلويات والمهاهي

المقاهي، إنها المكان لأقرب هنا إلى ما كنت فيه هناك، الناس خالسون في أسس، والشهقات والشهقات، لنحار والدخان، الوحوم والصخب، الأسى والصحكت شيء قريب مما تركته حلبي، ففي قريسا مفهى صغير على أول لطريق، أقل قحامة من تلك المقاهي التي تتابع في شارع «بور سعيد».

وذات مساء عرفت طريقني إلى المقهى جلست على كرسي ملقى في ركن نصف مظلم، وطلت شبا أسود. وسبق الهوى الذي يدخل من الأفاريز المجاورة دخانًا كثيفًا إلى أنمي، متحرك شيء داخلي

بعد أيام طلبت حجر معسل «سلمو» مع الشاي الثقيل، وحلست  
أنفث في تلذذ، وحيوط الدخان المتناوح تصنع أمامي أشكالا وألوانا،  
وتستقر فجأة على وجه «سميرة»، ولا تتغير بيما رأسي يعيب.

نعم «سميرة»، تأتيني هنا، تتشكل كحبة شقية، تدنو وتتعد غير  
عائنة بلهفتي وكنت أعمص عيني وأناديها، لكنها لا تجيب أبدا

في يوم كنت حائسا عارفا في دخاني وشجتي كعادتي، وهي تتشكل  
أمامي في سحب الدخان كعادتها، لكنها وبلا مقدمات لم بعد تلك الحصة  
العائمة التي تظهر لي كطيف خفيف، بل جسد إنسة تغف أمامي

فركت عيني، فوجدتها تغف أمامي، وتشير لي بطرف سباتها،  
فقممت إليها مسرعا، ومقلة على وجهها الوردي، وأحرى على سلة  
الورد الفارغة.

كنت قد انتزعت كل قدرى على الابسار، وأطلقتها في عيني ووجهي  
وشعتي، لكنها لم تبادلني الانتماء، بل سألت في حياذ كآتي لا أعني لها  
شيئا:

- شفت «عززي»؟

استرددت فرحتي العائرة من الهواء الفاصل بين وجهينا، وكسيت  
ملاحمي بجذبة، ورددت عليها في حياذ:

- لم أوه.

وأعطيتها ظهري، وعدت إلى الشيشة، وسحبت نفسا هوائيا من  
فرط خيبتتي، فامتلا صدري بكل الدخان المحترق فوق الماء، وتحث  
عطاء الرجاجة السميكة، وسعلت بقسوة، حتى ظننت أنني استبدلت

صدري الصبي السلم بصدر «عبد الشكور» الحرب، والذي يتباهى بأنه  
ذخن كل أنواع الكيوف، ويقول في ثقة متناهية:

- لا يوجد صنف على وجه الأرض لم أجربه.

حين عاد رنسي نهر سلتها التي تستقر روائح الفس والياسمين في  
حسانها، وحدث الفرصه سانحة لي كي أفكر فيها هو أولى بالتفكير،  
فالتقود التي نقت في جيبتي لا تكفيني سوى شهرين على حد الكفاف،  
وبعدها لا أعرف كيف أنفي هذا القرب من أحلامي؟

ما بوسع الفيلسوف الصعير أن يعمل في مدينة يقطن أهلها أنهم في غنى تام عن التفلسف؟

دارت برأسي أحلام، وامتدحت بحال الدخان المعثرة التي أصعبها أمامي، فرايت نفسي جالساً على مكتب يوارى حذاراً، بجمل لوحة زيتية، محوي رأساً معصولاً عن حسد، وفطرات دم سداح وتسيل حتى تكاد تلتطخ البرواز الخشبي الأملس.

رحت أسمع كلاماً بليماً شغفت له أذني، عازلاً ليهاها عن طرقة فواشيط الذوميو والطاوله وقرات الرد كأي أسمع أسات شعر من قم مدفوق كمهوه صصور صغير لشاب نحيف في عيشة القرفنة واحر يأخذ رأي شحص يجاوره في العمود الذي كنه نُعيد الفجر. وثالث يصحح مكسور اللغة وركيكها.

كاسوا يتكلمون معي بامتد وكلامهم عطى على هذه الأصوات المزعجة، التي يصعها مرئادو المقهى، لا سيما هذا الرحل البدين ذو الأسنان السوداء والأنف المقرط.

وحدثت معي ألتقص من مكاني، وألتي ثمن ما أحسبت وما نفحت على الطاولة التي تتر كعرفني قمت لأكمل أحلام يقظتي على سريري المتهاالك.

بعم أحلام، في النهار والليل، وكوابيس أيضاً، تحثه على نفسي، وتجعلني ألتقص مدعوراً، حين أتجمل أني جالس أمام أوراق بيضاء، وعاجر عن أن أحط فيها حرفاً واحداً، بينما يقف على رأسي رجل طويل بدين، عيونه تلغ بصف وجهه، وشعره المجعد واقف كشوك قنعد، وكفه التي تشبه «مطرحة الخبير» ممدودة نحو، وهو يقول.

« رئيس التحرير يلعلك أن أمامك دقيقة واحدة لتسلم ما كتبت قبل أن يدفع الحريدة إلى المطبعة، فود تأخرت فلا مكان لك هنا

أقوم معروفاً، وأجلس القرفصاء، وفي عيني دموع، أخلق في الفراغ مسعياً كابوسي المتكرر، وتسكن رأسي كانه سوداء لا تذهب عي إلا حين يأتي به وحه «سميرة»، وأغرق في التفاصيل القليلة التي دارت بيننا.

وقررت ذات يوم أن أواجه كابوسي، أحمل كل أسلحتي القليلة وأمرل إليه في ساحة الوعي، كما يقولون، فاستيقظت مبكراً، وجريت إلى الحمام الضيق، لأحشر حسدي بين جذرائه الصفيح، ومعني سسته المياه التي ملأها بالأمس من الحفنة لعمومية، وحلتها سر على كتفي حتى أعرفت قميصي، ففردته عن مشر العسل المتمد أمام عرقي بطول السطح، لكنه لم يحف إلى الآن.

ورغم الصقيع الذي كان يصع الهواء حولي، ويتسرب إلى عروقي، لم أسحر المياه على وبور الشرائط الرقدي في ركن الغرفة، بل تركت الماء البارد يسكب فوق رأسي كي يحلو له، فقد كنت أشعر بحاجتي إلى أقصى درجة ممكنة من اليقظة.

كسوت عريي بأفضل ملابس عدي، وخرحت قاصداً مؤسسة «دار الهلال»، حاذيت جدارها العريض العالي، ودخلت من الباب الرئيسي

في شارع «المتديان»، ووقعت صامتاً أمام رجال الأمن الجالسين خلف مكتب طويل.

كانوا مشغولين، أحدهم يتحدث في الهاتف، والآخر بدون كلمات في دفتر طويل سميك، وثالث يطالع مجلة «المصور». فرع الأول من مكالمته، فطر إليّ متجهياً وقال

- خير؟

تلعثمت قليلاً، ثم امتلكت زمام نفسي، وقلت:

أنا «رفعت عبد الحكيم» طالب دراسات عليا في «جامعة القاهرة»، وأريد مقابلة السيد الأستاذ رئيس التحرير.

ارتسمت ابتسامة خافتة على طرف شفتي الرجل، وسألني باقتصاب:

- بخصوص؟

- أبحث عن فرصة عمل، كمحرر.

نظر إلى ريمته، ورفع رأسه ومسح السلم العالي المؤدي إلى خوف المبني بعينه، وعاد إليّ دون أن يتخلل عن تفهمه، وقال:

- لإصدارات الدار كثيرة، ففي أي منها تريد أن تعمل؟

سدا كلامه مشجعاً، وعم كل شيء، وسرت في عروقي دفقة أمل، وتذكرت ما يبني وبين مجلة «الهلal» العريقة من ألفة وامتنان، فقلت على الفور:

- «مجلة الهلال».

اتسعت الابتسامة المصطنعة على شفتيه، لكنها اكتست هذه المرة بسحرة مكتومة، وقال

- اترك بياناتك مع طلب تدريب باسم رئيس مجلس الإدارة.

أي بيانات؟

- سيرتك الذاتية، وصورة من مؤهلك الدراسي، وبطاقتك الشخصية

لم تكن معي أي أوراق، فقلت له مدفوعاً بأمل لا أعرف من أين هم على فؤادي ممرارة

- هل يمكن أن أحضر أوراقك غداً؟

هز رأسه في لامبالاة وقال:

طبعاً . طبعاً.

ونظر إلى الباب الخارجي بنظر عينه، فدفعت قدمي نحو الشارع، وقبل أن أنعطف يساراً لأعود إلى حيث أتيت، استدبرت فوجدت الرجل الذي كان يقرأ المجلة، قد يحاه حائناً، وراح ي نظر إليّ بعطف شديد

في اليوم التالي أبت موظفة شئون الطلاب أن تمنحني ملغي كي أصور منه ما أريد إلا بموافقة وكيل الكلية، فدهست إليه ولم أجده، وسألت عنه فقبل لي إنه لم يأت اليوم عودت الذهاب في اليوم التالي، والذي تلاه، حتى قالته، وتحقق لي ما قصده، فعدت مسرعاً إلى «دار الهلال»، وتركت خلفي محاضرتين مهمتين.

لم أجد الرجل الذي ودعني بعطف، ولا ذلك الذي مسحني جزءاً من  
طاقته الدفينة الساحرة، إنها الثالث، ذو الوجه المستدير، والذي لم يلتفت  
إليّ قط، كان غارقاً في دفتره المسطور.

بدا عليه أنه لم يرني في المرة العاشرة، ولم يسمع حواراً مع زميله، إذ  
بدأ من نقطة الصفر

- حير؟

- اسمي رفعت عند الحكيم.

وسردت على سمعه ما دار قبل أيام، فهر رأسه، وأخذ الملف مني،  
وكتب عليه شيئاً لم أنسيه، ثم وضعه إلى جانبه مددت عني لأنقط أي  
شيء مما دونته، بلا فائدة، ولمحي أقف على أطراف أصابعي، وعياني  
داهمتان إلى الملف، فأراد أن يرميني، فرفع الملف في وجهي فقرأت  
«مكتب السيد الأستاذ رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير»، ويبدو  
أنه رقى لحالي مسألتي.

- هل تعرف أحداً من كبار الصحفيين هنا؟

- لا.

- ولا أحداً من كبار الكتاب في البلد؟

- لا.

- هل أحد من أقرانك وزير أو مسئول كبير أو رجل أعمال أو قاض  
رفيع المستوى؟

- لا.

وساد صمت بيننا، قطعه أنا في قطة:

- أنا أعول على حيي للكتابة وما حصلته من معارف شتى.

لم يرد، فواصلت:

- أتبع «الهلل» وأقرؤه من الغلاف إلى الغلاف، واشترت أعدده  
العديدة كلها وطالعتها، وقرأت مئات الكتب في الفلسفة والأدب والسياسة  
والدين

أشرق وجهه بابتسامة عريضة، وقال:

- كل هذا سيفيك إن دخلت هذا المكان، المهم أن تدخل.

امتقع لوني، وعاجلته بالسؤال:

- أليس هذا في يد رئيس التحرير؟

- بلى.

- الطلب في يدك، هل سيرفضه؟

هز رأسه وهو يسترد ابتسامته، وقال بوجه محايد:

- سيوافق، إن شاء الله.

ونظر إلى الخرح، فمشيت نحو الشارع وأنا أسمع كدته الأخيرة

- ربنا معك يا بني.

انتظرت طويلاً بلا جدوى، وعدت مرات ومرات لأسأل عن  
مصير طلبي، حتى إن موطني الأمن حفظوا شكلي، وعرفوا سؤالي،  
فكانوا يجيبونني قبل أن أنطق حرفاً واحداً:

- ليس هناك جديد.

وخرجت من عندهم ذات يوم، فقدمت طلباً آخر في مؤسسة  
«رور اليوسف» ورحت أنتظر، حتى مدت بقودي ثدماً، ولم يعد الانتظار ممكناً

ماغتي أول الشهر، وساء لتي عسا «عبد الشكور» عن الإيجار، لكسي  
هربت منها، وقلت له ذات مساء وأنا أهبط الدرج الخشبي المتحجر أو  
الحجري المتحشب

- أنتظر فلوسًا من البلد.

لكنه ضغط عليّ بلا رحمة:

- من سيأتي إليك؟

واريت ناظري عنه وأجبت:

- تحويل بريدي.

شغل داخل صمدوه نفس مكتوم وقال:

- ربنا يسهلها.

لم يكس في حاجة ماسة إلى حبيباتي القليلة، فأولاده يسرحون على  
أوراقهم كل يوم، ويعودون في آخر النهار ليرموا في حجرة ما حصده،  
وهو يقول

- لو تركت فلوسًا في يد الشاب حتمًا ستفسده.

وينظر نحو الزقاق ويقول:

- هنا شباب يكسبون جيدًا، لكن ما يجمعونه يصرفونه كله على  
السيجو والخشيش والبرشام والخمور الرخيصة.

ولولا أنه يريد أخذًا يتسبى معه في جلسته الطويلة، ما جاد عليّ بكموب  
الشرابي كان يخذه طاهرًا، لا يتباح إلى برهان، وم يكن هو يدري هذا،  
بل كان يعتقد دومًا أنه يفعل الصواب. يتوه قليلًا ويقول

- أنا أدير دوله نحاهنا جمهورية عبد الشكور، ولولا حرصي لصاع  
أو لادي مثل أغلب عيال هذا المكان البائس.

ويذكر أن هناك شيئًا ناقص في كلامه وحاله، فيتممه سريعًا، من  
دون أن يعطيني فرصة للتعقيب

إذا كان على التعليم، خلبهم بمكوا الخط، ثم يسرحوا على أوراقهم  
أعرف خرمجي جامعات وقاعدتين في البيوت.

ويتذكر أنني أيضًا من هؤلاء الذين يججو حالهم في نعومة، فيستدرك  
- لا مؤاخذه يا بني، إست حالتك مختلفة، عاوي علم

لكسي حين عجرت عن دفع إيجار العرفة مع انتصاف الشهر، قل  
لي:

- لازم تلدو على شغل.

وجدت نفسي أرد على الفور:

- تقلعت إلى شغل، ومستظر الرد.

رفع وجهه، وصوب عينه بقوة نحوي، حتى شعرت أنه قد عرّي  
كل ما أستره داخلي، وسأل



- أي شغل؟

استعدت ما جرى معي في مشهد واحد، تلاحت فيه التفاصيل، فاسودت الصورة تمامًا، لكنني ابتلعت ريقِي وواصلت:

- محرر صحفي.

صمت برهة، ثم قال:

- مشوار طويل حتى تمسك بإصبعيك جنيهاً واحداً.

ولم أحد ما أرد به عليه، ولا أعرف من أين أتى بما نطق به، لكنه لم يدع حيرتي تطول، وواصل كلامه.

- لي صديق من مريدي «الطريقة الأحمدية» كان يعمل في مطبعة «دار الهلال»، وكنا ملتقي أسبوعياً في مسجد «السيدة زينب»، وبعد الخنصرة، نخرج لسجلّس على المقهى، وطالما حكى لي عن شباب جروا حتى انقطعت أنفاسهم وراء الأخيار، وقرأوا كتباً بعدد شعورهم، ولكن بعد سبعين طويلة، تم تعيين قلة منهم، وأغلبهم يشّس وانسحب، التقطت من كلامه أن له صديقاً هناك، فامتلاً وجهي بفرح خفيف، وقلت له:

- هل يمكنني مقابلة صديقك هذا؟

مصمم شفتيه وقال في أسي:

- تعيش انت

واستيقظ الصمت، وأطس علينا من جديد، هو كان يهكر فيها لا أعرفه، وأب كنت عارفاً في أحرار عوزي، ولم يتبق في جيبِي إلا ثمن

عشائي، وبعدها لا أعرف ماذا سأفعل؟ لم يطل الصمت، فسرعان ما تلوّث بصوت «عبد الشكور» الأجنس، حين سألني عن غير توقع مني.

- تعرف تغني؟

ألمحني سؤاله، فلا ارتباط له بها كما تحدث فيه، ومرت دقيقة من حيرة في نفسي، لكنني تحاملت عليها وأجبت:

- كلنا نغني حين نفرح، وحين نحزن.

هز رأسه في ضجر:

- لا أقصد هذا، بل أريد معرفة حلاوة صوتك في الغناء.

- لم؟

- خلّني على قدر عقلي، واستجب لما طلبته منك.

زادت دهشتي، وكمت اشمئزازي داخلي، وسألته:

- أي أغنية تريدني أن أغنيها؟

طوح يده في الهواء، وقال:

ما يعجلك

أطرقت صامتاً لرهة، وراق لي أن أعني «الأطلال» التي أعشقها، فأعصت عيني، وانطلقت في العناء، متحسراً على أطلال حلمي الذي يتداعى الآن، وقد تصطري الفاقة إلى أن أعود إلى قريتي خالي الوفاض.

عنيّت أول مقطع في القصيدة، وفوجئت بـ «عبد الشكور» يصق وفي عييه دموع، ثم مديده إلى يدي، وأحدها، وداس عليها، وقال:

- صوتك مجروح مليء بالخنين.

قلته بوجوم، وأبأ لا أزال متأثراً بالحالة التي صعبها غيائي الشجي،  
لكسي اصطورت إلى أن أدع شجني يتبخر حتى يزول وأنا أنصت إلى  
أستلته المتدفقة: «أين غيت من قبل؟ هل سمعتك أحد؟ ماذا قال لك  
الذين استمعوا إلى عنائك؟ هل حلمت في يوم من الأيام أن يطرب  
الأسر لصوتك؟ أتوقعت أن تجني من صوتك مالا أم عدا أم كليهما؟

ضحكت رغم وجعي، وسألته:

- ماذا تستفيد من كل هذا؟

- أريد لك أن تكسب ما يجعلك تعيش هنا.

لم أرد، فواصل هو:

- أبأ أعلم أن جيبك ليس فيه سوى قروش، وأنتك إن لقيت عشاءك  
فلن تجد إفطارك، وإن وجدت بها سيأتي موعد الغداء ليجدك تلوى من  
شدة الجوع. أنت علبان دي حالتنا، وإلا ما سكنت في هذه المنطقة  
البشعة.. علبان اليوم لكن غذا لا، ستضحك لك الدنيا، وتقرش تحت  
قدميك الجناء.

تنتحنت، وأنا أشعر أنه قد عرى كل ما أخفيه، وقلت له:

- لم أجد سكناً في «بين السرايات» ولا أي من الأحياء التي تحيط  
بالجامعة، وبحثت إلى هنا وراء وصف واحد من بلدنا.

- واحد من بلدكم.. هاهاهاها، لا بد أنه عامل تراحيل من الذين  
كاسوا يرمون أحسامهم ككلاب السكك تحت كوبري «زينهم» حتى  
يتعطف عليهم أحد ويطلب منهم شغلاً مقابل جنيهاً.

- كلاب السكك!

- لا تؤاخذني، فأنت لم ترهم، فلم يعد أحد الآن يقف هناك وعباءه  
يكاد ينط من رأسه بحثاً عن أي ريون، لكن إن عادت ولم تسمعي فلن  
يكون أمامك إلا أن تعود لأبيك أو عثي في الطريق الذي سلكه رجل  
بلدكم الذي ذلك على هذا المكان العس

- عامل تراحيل؟

حتى هذه قد لا تصلح له.

لكنني أتيت لأصير فيلسوفاً وكاتباً عظيماً.

- يمكنك تحقيق حلمك لو بقيت هنا ولن تقى إلا إذا وجدت ما  
سقى به، وهذا يحتاج إلى أن تطيعي

شعرت بأنه يعليني، فلذت بالصمت، وتطلعت إليه، فقرأ في عيني  
انكساراً، ووجدته اللحظة المناسبة كي يضرب ضربته، فقال على الفور:  
تحت الكنية يوجد صندوق، انزل هاته.

أبحث ظهري، ماداً بصري في العتمة الخفيفة التي نشقها حيوط دور  
باهت من جيباتها، وأذني فتحتها حلبة آتية من الرقاق، حيث يتشاجر  
شبابان، ويتبادلان السباب البذيء، والصراخ والوعيد، بينما صوت  
ثالث متعجب يحاول أن يهتفها، من دون جدوى، وينهر في الوقت نفسه  
امرأة راحت تولول على مقربة من الحركة.

نوقمت منشعلاً بما يجري في الخارج، لكن «عبد الشكور» قال:

- هذا هو المعتاد، فلا تتوقع عنده.

أكملت ما بدأت، فدفنت رأسي تحت الكنية، ومددت يدي وراء  
ما ذهب إليه بصري حين تلمس مسار الضوء، فاصطدمت أطراف

أصابني جسم معتم صلب، مسجته في هدوء، فملأ التراب أنفي  
رفعته إلى «عبد الشكور» وكان هذا الشيء صدوقاً خشبياً قديماً، فأشار  
إلى مكان بجواره، لأضعه فيه، ووضعته، فنفخ هو فطار الغار وعدا  
المكان، وزاد النور شُجًا.

رفع الدرفة العليا فانتفخ عن دف محشو إطاره بحروف من الخط  
الكوفي، وإلى جانبه كراسية عليها غلاف أخضر قاتم.

التقط الدف وهره فصلصل، سلمه إلى بده السري، وتقره بأصابع  
يده اليمى، ثم انطلق يضر به، وهو يطوح رأسه، وشعاعه مرمومتان،  
تكتبان صوتاً يريد أن ينطلق، ووجهه اكتسى بمسحة حزن طارئ،  
وسقطت دمعتان على حجره.

وضع الدف والتقط الكراسية وفتحها، ومدها إليّ قائلاً:

- اقرأ وسمعي.

كانت أشعاراً مكتوبة بنسخ بديع، هي مدائح دينية في الرسول صلى  
الله عليه وسلم، وحيل صنع الله، والعسر المظنشة ومدارج السالكين.  
قرأت كثيراً منها وهو يتابعني في صمت تام، حتى إنه لم يتنه إلى  
قرعة الأواني في المطبخ، وسقوط شيء على الأرض، وحقأة حرح عن  
سكوته:

- كنت أحفظه عن ظهر قلب.

. وهل هذا حطك؟

لا، خط صديقي الطبعجي، رحمة الله عليه.

- حطه حيل.

- صوتي كان أجمل، قبل أن تنورم حجرتي، ونُجرح حبالى الصوتية  
بعد أن سكنتها بثور، كحيات الأرض، عجز الأطباء عن علاجها.  
شرد قليلاً ويعود.

أحدهم سخر مني حين رأي حريضاً على صوتي، لأنه لم يكن يعلم  
أنه رسالي في هذه الحياة، خاصة أن أولادي أيامها كانوا صغاراً.

وعند مرة أخرى إلى شروده، وتركني غارقاً في هواجبي، الأرض  
ديد من تحتي، وقلبي معلق بأمال كدنة وحقأة وصل «عبد الشكور»  
إلى ما يريد وما كنت أظنه وأحشاه في أد، بطرفي عيني طويلاً وقال.

صوتك جميل، وبمكك أن تكمل طريقتي

أأ؟!

- أنت

- الأولى بإكمال طريقك واحد من أولادك.

- أصواتهم عكرت، حاولت معهم وقشلت.

- لكسي ...

- ما أريده لك لا يعارض ما تريده لنفسك.

- بل سينسفه من أساسه.

لا تتعجل الحكم، سأعلمك الصرب على الدف بطريقة تميز  
القدوب، وعلى قدر ما يسمعي صوتي سأدرث على الإنشاد، كيف تنقل  
صوتك من الحواب والوسط إلى القرار .. هذا لن يستغرق أكثر من  
أسبوع، وبعدها ستعرف طريق محطة القطارات

ومرت أمام عسي صور متاعه: كتب الدراسة التي يجب أن أشتريها،  
وأبي الذي لا أعرف كيف يعيش من قراريطه القليلة مع مرصه العضال،  
وبطني الذي لا أعرف عدد كلف أمله حتى ولو بأربعة حافه، ثم جاء  
وجه «سميرة» وغطى كل الصور. ووجدت نفسي الآن:

القطارات ستعدي عن هنا.

هي تذهب وتعود.

- كيف أوفق بين الدراسة وبين ذهاب القطارات وإيابها؟

تلمس في حليسته، ثم هز منكبيه وقال:

- الأنوبيس هو قطار المدينة، ومحطة «أسو الريش» حلتها، منها تبدأ  
والها تعود.. سوق تمشي ولا تنتهي.

- لكن هذا تسول لا يليق بي.

بان في وجهه عصب، وشخل صدره، ثم بصق على الأرض، وقال.

- أنت ستبيع السعادة.

قصر إلى رأسي كل ما قرأته عن السعادة، تلك القيمة الرائعة التي  
يرومها كل البشر، ولا يبلغها إلا أقلهم. وبدوت تائها والخيرة تأكلني،  
وعشرات الأسئلة تتزاحم في خاطري، ويصعب بعضها بعضاً، لكنني  
جاريته:

- السعادة، لا تباع ولا تشتري.

كل شيء صادقته في حياتي كان يباع ويشترى، السعادة، الكرامة،  
وحتى البشر أنفسهم.

- مطلق عريب، ولا أعتقد فيه، فقد صادقت في حياتي كثيرين لديهم  
استعداد أن يدفعوا حياتهم ثمناً لحريتهم وكرامتهم

هو مطلق الدنيا التي عشتها.

- عموماً، أنا عشت دنيا مختلفة

- دياك تلك كانت هناك في بلدك، أنا هب في الرحام، ولا أحد لديه  
وقت ولا حيل لبحث عن المعاني.

- هذا كرب ومؤس

- الكرب الأصعب هو الحروع

وكنيت بالععل أعاني من فرط الحروع، فتلعت ربي، بسبب أمي  
تقضمه رائحة الطبخ القادمة من الداخل، ووضعت يدي على بطني،  
وشعرت بدوار، لكنني تماسكت، ووقفت وقلت:

أستأذن يا عم، نصف ساعة وسأعود.

ألصق أصابع يده الخمسة، في إشارة إلى استمهلي، وبأدى بأقصى  
ما يستطيع:

يا أم العيال.

حاهت وهي تمسح يديها في فوطلة مهترفة، ووقفت في بقعة نور، تحت  
اللمبة المعلقة في السقف بلا عناية، وانتظرت أوامره:

خلصت؟

- على وشك

- لما يجهز هاتي أكل لقمة أن والأستاذ زرع.

سد على وجهها اندهاش، عرفت سبه فيها بعد، ولحقها هو قبل أن  
تطق، وأشار إليها أن تنصرف، فعطس في عتمة الحب المؤدي إلى  
المطبخ. فلما ابتلعها الظلام تمامًا عاد إلي بعينيه، وقال:

- حتى يصير بيننا عيش وملح.

بعد امتلاء بطني، أصبح الطريق مفتوحًا أمامه كي يدريني مساعاب  
طويلة، ثم أعطاني الكرامة وقال:

- احفظها على مهلك، تكفي قصيدتان أو ثلاث كي تبدأ.

(5)

دهت إلى الجامعة في اليوم التالي مرهقًا، فقد قضيت الليل في حفظ  
المناجح الدينية، ومعاناة صورة «سميرة» بن السطور. لم أذهب إلى قاعة  
المحاضرات، بل إلى المكتبة لأسأل عن كتب حول السعادة، التي سأكون  
ناحرها.

الغريب أسي وأنا أنتظر حضور الكتب كت أشعر بالهجة، فلما  
جاءت الكتب كت استمتع بالتهام سطورها، وأشعر أن آلامي تراجع  
حتى تلاشي، والصعوط العائصة على حياتي تنفك

لم أكن أعرف وقتها لماذا أنا سعيد؟ هل هي لذة القراءة؟ أم لآسي  
سأقضيها غير حائض جانب رفاق تمثني فيه «سميرة»، وردها تودني  
إلى قاعات الدرس، وشوارع تتراس فيها مقاه صرت مؤلفًا معها

ولم أكن أعرف ما إذا كنت سعادة قصيرة، سرعان ما ستتبحر، أم  
معيمة ستبقى معي إلى الأبد، ما إن تفتر حتى تعود عفية من جديد.

وقطعًا لم يرد على ذهني في هذه اللحظة أن أنبحث عن تفسير لما فيه  
عند فلاسة اليونان أو عند «الكندي» و«مسكويه» و«أبو بكر الرازي»  
و«إخوان الصفا»، بل بحثت ويا للعرابة! عن كل ما أشعر به وأتوقع  
أن يجري لي عند «عبد الشكور».

لم أكن حتى هذه اللحظة قد صادقت أحدًا من زملائي، أجلس بينهم  
صامتًا، وأمضي على الحال نفسه، ولا أرى بينهم سوى هدي، يحيط على

السبورة، وعلى وجه الأستاذ الذي يقف أمامها، وعلى رؤوس ووجوه الجالسين إلى جوري، وفي طرف الكلية حتى بابها، ومنه إلى باب الحمامة، وفي الشارع حتى غرفتي المعلقة فوق بيوت متهالكة.

وهذه الانطواء متعني ساعات طويلة كي أقف أكثر في هذا اليوم عن «السعادة»، وعدت آخر النهار، وأنا موقن بأن ما أنا مقدم عليه ليس تجارة السعادة ولا صاعقتها، بل هو مجرد تحايل على تحصيل أي رزق، طريق سأسلكه لا يختلف عما يسير فيه «أبو عوف» و«حسونة» و«عرازي» و«عاطف»، بل هو الطريق الأسوأ بينهم جميعًا، لأنني أستعمل شيئًا ساميًا وهو «الدين» في تجارتي التي سأندوها في الغد، من دون إبطاء.

وهكذا بدأت السعادة، التي كانت تعمري وقت أن كنت حالسا ورأسي مدفون في صفحات الكتب، تتبشر وتدوسها خطوات الوئيدة على كوبري الحمامة، والليل كان يشهد على ما أنا فيه من أسى ولوعة.

وانقضت نفسي حين وردت «سميرة» على خاطري وهي تراني أقف في الأتوبيسات، فهي يغرد، ويدي ممدودة لتلتقط ما يجود به كل من حركت وجداهم ولو لسافة ضئيلة، أو من رقوا الحال شاب يطوح بين عرق الأجساد المكدودة.

كنت قبل الأمس أرى نفسي واقفاً على تل مرتفع وهي ترنو لي، أنا الفيلسوف لصغير الذي يحلم بأن يقش عن جدار الزمن كلمات لا تعيب. اليوم سأكون متسولاً بالجهل مثله، وعرايي الوحيد أنني أكمل مشوار أبيها، وكل فتاة بأبيها معجبة.

ووجدت نفسي أحصي الحافلات التي غمر بها، وأحلق في ركابها المحشورين وعيونهم تطالع الشوارع ليسلوا أنفسهم قليلاً ويتغلبوا على معاناة الإشارات البطيئة والشوارع المزدحمة وأبواق السيارات التي نغم الأذان.

عند إشارة مدحل «فصر العيني» وجدت «عرازي» يتقافز بين السيارات وعلى ساعده كرتونة الماديل، ثم ينحني ليتلقط الحبيبات القليلة، وعرق الظهيرة راقد على حديه وحبيبه، متوحداً مع العار على باقة قميصه الأخضر الخفيف.

لوحت له بيدي، فجري نحووي مرحباً:

- أهلاً يا أستاذ.

هذه المرة لم يسعدني ما قل، فالأستاذ سيكون بعد ساعات عالية على قروش العلابة، ورأسه المرفوع في رهو، سيضعص أمام الجيوب شبه الخاوية

وصلت إلى محطة مترو «السيدة زينب» لأمر من الفوق الذي يتمدد تحتها أمام أقدام العابرين هاراً، وحتى يتصفب الليل ثم يصير مأوى لأطفال الشوارع والتسولين والمدميين، ورأيت القطار، لأزرق الراهي يمرق في خيلاء ليغوص تحت الأرض في اتجاه محطة «سعد زغلول» ورافت في فكرة، لكن «عبد الشكور» الذي قابلني بوجه باسم عند مدحل الميت قال لي:

- صعب أن يتركوك تلتقط رزقك في المترو... أعرف أن عيون الشرطة هناك مفتوحة عن أحرها، والشركة الفرنسية التي تديره تجمع هذا

صامقسي كلامه، فرحلة واحدة في المترو بين «حلوان» و«المرح» قد تعني عن مائة أتوبيس، وأنا في حاجة ماسة إلى وقت أمتحه لدراستي. وشعر هو بتبرمي، فقال:

- عموماً جرب، وخذ حذرک.

والثنت عن يمينه وأشار إلى دولاب صغير، درفته اليمنى مكسورة. وقال:

- هات الجبة والقفطان والعممة.

مشيت نحو الدولاب لمحطات متافلة، فتحب الدروبة فرعقت كأنني طعتها بسكين، وطار العار على رأسي، وجدت الحبة والقفطان مطويين داخل كيس بلاستيكي فوقهما طروش أحمر وشال أبيض لم يفقد نصاعته، وبين الطيات تفوح رائحة الفتالين والقباز.

أعطيته ما أحضرت له، فمسخني بعينيه وقال:

طولک طولی.

لم أفهم ما قال، لكنه عاجلني:

لا يمكن للناس أن تسمع مدائح من شاب يرتدي بنطالاً وميضاً اكتسى وجهي بصيق شديد من الصعب إحماؤه، بل نفخت متسجراً، وهممت أن أقول له إني لن ألس هذه الأشياء، حتى لو عدت إلى بلدي صمر اليبس، أو مت جوعاً، لكنه فاجاني كالعادة:

- هذا أفضل لك، حتى لا يعرفك أحد... أنت ستكون واحداً من مشاهير هذا البلد في المستقبل، وصورك سملأ الجرائد، و«حسونة»

سيطاردك عند «عمر مكرم»، والأفضل أن تبقى هذه الأيام مستوراً، بل أن تكمل دراستك، وتقضي إلى حال سبيلك.

ثم حك ذقنه بأطراف أصابعه، وقال:

أو تبقى هنا واحداً منا إذا أردت.

وسألني بعة

- أغمص عينيك قليلاً

ظفرت إليه مائه، فأفهمني:

- أريد أن أراك حاشعاً لأطمئن إلى أن مديحت سيهر القلوب

شعرت بأنه استدر حتى نكاه إلى ما يريد، واستعدت أول كلام افتتح به الطريو حتى يبعثني أكمل طريقه، حسناً يعتقد، وكنت قد ذهبت معه إلى حث لا يقع الرجوع.



## الفصل الثالث

حيوش من أرق هاجمتني في تلك الليلة العربية في حياتي، وحزمتني  
 كبير أساسها من حجر، وجعنتني أتقلب في حيرة وحواف عما يتطوّرني حين  
 يطلع النهار أرق في أرق، وسهّاد لا يريد أن يرحل، والنوم صار عريب  
 أصال.

كنت قد حفظت ثلاث قصائد، وأتقنت إعصار عيني قليلاً، وإمالة  
 رأسي إلى اليمين، ومد كفي بعد إصمام أصبعي إلى جانب فمي، ثم نقلها  
 سريعاً لتضرب الدف، كي يطلق الشيد. تدرست على أن أكون في منطقة  
 وسطى بين الحضور والغياب، أو أجعل الناس يعتقدون أنني هكذا  
 وأتحدث أن أجرب اللباس، ما دام النوم لا يأتي خلعت جلدي،  
 وارتديت ما أعطاه لي «عد الشكور»، وبطرت إلى هيئتي في نصف المرأة  
 المكسورة المائلة على استحياء، لتشكّل نصف درة دولابي المتوَعك،  
 الذي لم أجد فيه أرفقاً ولا شفاعات، فاستعملته صدوقاً واقفاً لملاسي  
 القليلة.

راق لي مطري، وتحدثت أني أرهري يتأهب لصعود سر عدل،  
 فشددت مكسي، وتحنّحت وخطفت في ناس أراهم ولا أراهم عن  
 «السعادة»، لكن الذاكرة لم تسعني بآيات قرآنية، ولا أحديث مسوبة  
 للمرسول، في هذا الموضع، إن أقوال حكماء مروا على الرمس، أو مر

الزمن عليهم في مناكب الأرض. قلت كل ما أعرف وأنا غارق فيه ينطقه لساني.

لكن العمح الذي بدأ يسري في الليل الراحل، غلوطاً بروائح النارجو والحشيش، كان يقطع حديثي. امرأة أخرى لم أسمع صوت لدها من قبل، وأخرى تصحك في فحش، وتزاعج فحيح رجل يلاحقها بالقاط نائية، ويمد يده إلى مكاس شهوتها مستجيباً لما تطلبه هي لسان يتلوى من فرط الشهوة.

حاصر تني الأصوات من كل جانب، فجدبت على الفور حديثي من المعسى الذي تقتلج به الروح إلى الملة التي يشتعل بها الحسد. وجاءني طيب «مسيرة» وهو يتهايل أمامي في شارع «المبتديان»، وارتعيت على سريري ففقطق ثم غداوى، فلم ألق له بالاً، وطاوعت السعير الذي سرى في شرايبي، فمددت سدي لأطعمه وأنا أعمعم وأحار حتى سقطت مكاني بلا حراك.

حين حطت الشمس على رأسي قمت مغروراً، وبدأت يومي الأول في مهجتي الجديدة من دون أن أغتسل.

حطفت الدف، وجريت أهر الذرع حتى وجدت «عبد الشكور» جالساً يحمق في جدار الزقاق، ويقول:

تأخرت يا مولانا، والرقق يجب التيكير.

وقفت أمامه كاسف البال، فأشار إليّ:

- تعال غير ريقك.

ومد نحوي شطيرتي قول وطعمية، وقال في جدية ظاهرة:

- ادلع واحر.

وجريت وحصى الرقاق يتطير أمامي حتى بلغت شارع «بور سعيد» واعظمت يميناً حتى وصلت إلى محطة «أبو لريش» فوجدت الأتوبيس الداهب إلى حي «مدينة نصر» يتأهب للانطلاق.

صعدت ووقفت عند الباب الأمامي، ونظرت في عيون الركاب، التي تعلقت بالدف وراحت تمسح هيיתי.

وقال رجل يجلس في المتصف، وهو يشير إلى مقعد حل بحواره

- تعال يا مولانا.

لكى تشبث بمعكاتي، ورفعت الدف قليلاً حتى بلغ صدري، لكن أصابعي بيست، وحسن صوتي، ووجدت نفسي أتقهقر، وأتأهب لنهوض، إلا أن أصابع صغيرة فرت كنفني، ومرق من حاسبي ولدراح صوته يملأ أدي.

«صل على رسول الله أية الكرسي وتفسيرها يا مؤمن، حصص مسح ضد الفقر والمرض والحسد والفقر. أتيس في وحدتك، صديق في عرشك، تعريج في كرتك، وفرح في حزتك، وجلاء فمك وعملك، وشميع في ترنتك. آية لا تقدر بكل مال الأرض، وهبتها خمسون قرشاً يا مؤمن، والرقق على الله»

كررها ثلاث مرات قبل أن يطلق كنهم حاد من المقعد، ويرمي على حجو الجالس كتيبات نحجم كف يده. بعض الركاب التقطها وراح يقرأ في صمت بعضهم تركه على حجره ساكناً، أو أمسكه بيده ليعده إلى الولد، الذي كان قد وصل إلى حرم المقاعد، ثم ارتد سريعاً إلى

أولها، ومد يده إلى الركاب فلة منهم أعطته ما حده من وهبة، وأكثرهم  
أعادوا إليه كتيباته ذات الأغلفة الخضراء.

جمع القود إلى جيبه، والكتيبات إلى الحقبة الصغيرة المعلقة في ذراعه،  
وهبط سريعاً، يجري نحو حافلة أخرى.

شعرت بأن هذا الولد قد جاءني في الوقت المناسب، فتدحرجت  
صحرة الحجل من نسي، وقلت لها «كلمات يحفظها الولد ولا يفهم  
معانيها، جادت عليه رزق ليس بالقليل، فما سألني أن الذي أعني ما  
أحفظ، وأتوني بدل جهد أكبر في تحصيل رزقي، وهيتي أقرب إلى الذين  
من ولد يلتصق قميصه ويتطاله بجسده النحيل».

رفعت الدف حتى صار بمحاذاة وجهي، وصرت خفيماً فضهلاً،  
وانطلق فمي بالنشيد:

يا صاحب القبر المنير يشرّب	يا منتهى أملى وعاية مطلبي
يا من به في البائبات توسلي	وإليه من كل الحوادث مهربي
يا من نرجيه لكشف عظمة	ولحل عقد ملتو متصعب
يا عوث من في الخافقين وغيثهم	وربيعهم في كل عام مجذب
يا رحمة الدنيا وعصمة أهلها	وأمان كل مشرق ومغرب

كان صوتاً حلواً صافياً كالصاح المشمس الذي غمرني بالدفء،  
وكانت نصف عيني المفتوحة ترقب آثار ما أشدو به على وجوه الركاب.

معصم فتح عينيه دهشة، وآخرون هزوا رؤوسهم طرباً، وقلة كانت  
حاملة في أماكها، عرقاً في همومها لم تشعر حتى بوجودي بينهم رحل  
في المتصف لم ينتظر حتى أنتهي من بشيدي وأطلب وهتي أو صدقتي،  
مد يده في جيبه وأخرج ربع جنيه مطوياً، ودسه في يدي. مسيدة بديّة  
تحبس يده بصعين من المقاعد فعلت مثله وفي عودتي وجدت في حبيبي  
حيهين ورعاً، بين كان الأنوبيس قد تحرك، وقطع شارع «السد» حتى  
وصل إلى محطة ميدان «السيدة ريس» وتوقف فترحم الركاب على  
الباين الخلفي والأمامي وتحركوا في سرعة حتى انحسر وافي المتصف،  
وسعوار حلة دهاني وإيني، فذت بالصمت حتى جاءت المحطة التالية،  
فهبطت لأبحث عن حافلة أخرى

(2)

حين عدت مجهداً بعد الظهر وجدت «عبد الشكور» في انتظاري واللهفة تسكنه. ما إن رأي حتى بادرنى قائلاً:

- جئت قبل ميعادك.

تصرف معي كأنه رب عملي، بما أعطاني إياه، ونطق كلامه بطريقة أشعرتني بأنني أجير لديه. كنت غيظي وقلت:

- لدي محاضرات مهمة اليوم.

هز رأسه وقال متبرماً:

- لكنه أول يوم لك.

قلت في نفسي: «لا بد أن أكون حاسماً معه هذه المرة، لاعتاد ما سأفعله» فقلت له:

- لا تنس أنني موجودهما من أجل استكمال دراستي العليا

لم يرد، وتطلع إلى جيسي، فتقدمت نحوه، وقلت وأنا أخرج له كل ما معي:

- هذا هدي الأصيل، ولن أchied عنه أبداً.

أخذ يعد النقود في صمت، ميللاً إياه بلعابه الغرير، فلما انتهى قال دون أن ينظر إليّ:

- لا بأس.

ثم مد يده إلي بثلاثة جنيهات، وقال:

جمعت إيجار غرفتك لشهر كامل في يوم واحد.

لم أجاره في حديثه فواصل

- عذاً قد تحصل ما تأكل به، والحساب يجمعنا.

كنت أحسب أنه قد يصدق عني بطعام الأمس واليوم، ولم يرد مأً ولا أدنى، ولا لشهاله أن تعرف ما أنفقت يمينه، لكنه أظهر حقيقة محله أمامي من دون مواربة، ولم يكن في حاجة إلى أي تحمّل ها، حتى حين قلت له على سبيل المحاملة. أنت رجل كريم، قهقه حتى أزت الدكة من تحته، وقال في علظة:

- لم تأت إلى هنا ليتصدق الناس عليك.

تركته فرحاً بصيده الحديد، وصعدت إلى عرقتي غيرت ملاسي وهطت سريعاً إلى «جامعة». ركب في أول مقعد الخافلة، وحين صعد الولد الذي يورع أية الكرسي في محطة «أبو الريش»، أحدثت كتباً منه ودسست في يده خمسين قرشاً، ولم أدعه ينتظر حتى يرميها على حجور كل الركاب ويعود ليجمع ما جاد به بعضهم.

في قاعة المحاضرات شردت فيما فعلته اليوم، ورأيت كل الأيدي التي امتدت إلى من فوق المقاعد تتجمع، لصنع جدار لحم يحجب السورة ووجه الأستاذ عني، ثم تحيطني من كل جانب فلا أرى رملاني

في محاصرة اليوم التالي كان عليّ أن أتهه سكل كياني، لأنها كانت حول «فلسفة التحليل»، وتطرق الأستاذ إلى تحايل المصريين على كتب أرواقهم.

انتهت تمامًا رعم أن وجه المحاصر سرعان ما اختفى، وحل محله وجه «عبد الشكور»، وتحول دملاني إلى أولاده «حوتة» و«عراري» و«أسو عوف» و«سميرة» وابن أخيه «عاطف» الذين يورعهم على الشوارع القاسية، ويجلس في مدخل بيته المحدث ليحصد ما جوعه، وهو يضحك ويصق ويحمل صاعتا في جدار الزقاق.

لكس الوجوه التي لم تحصر إلى هذه القاعة في يوم من الأيام، لم تسمع صوت المحاضر من أن يصلني جليًا:

«محايدوا نعيشوا». إنه المدا الذي يعيش في رؤوس كثيرين من أهلنا، لا سيما السطاء منهم، الذين لا يعرف على وجه اليقين كيف يستمر على قيد الحياة بهذه الدحول الشحيحة؟ من أين يأتيون بما يسد جوعهم ويستر عريهم، ويدفعونه لأستاذهم في مسيل التعليم والصحة؟ إنها المعادلة العvisة على الفهم المنطقي في هذا البلد العريق، الذي اعتاد أهله أن يتروا معاشهم رعم قسوة الظروف، ونعاقب الطعام والعباة والسراق ظاهرة قديمة متجددة تشهد بعمرية المنبي حين وصف الخال والمالك في بيت عميق من الشعر، نودده في حجرة:

«بامت نواطير مصر عن ثعاليها ... وقد شمس وما تقى العبايد»

ولما انتهى الأستاذ من شرحه مسح وجوها جميعًا بعينه وقال

- برلت الفلسفة من السباء إلى الأرض، وما قلته في هذه المحاصرة أولى بتفكير كم كما شغل تفكيري طويلًا، وفي هذا سياق سؤال في

مجان آخر العام، لا أفرض عليكم إحابته مما قلته، فما نطقت به كان مجرد معابيح للقضية، أما بقيتها فهو حودة بينكم في البيوت والأزقة والشوارع، فالتقطوا منها أي تجارب ميدانية تعيكم على الخواب.

تهللت أساريري، وقررت وقتها أن أكتب المحاصر المعيد عن تجربة «عبد الشكور» وأولاده، ووجدت نفسي أصعب صورتي إلى جانب صورهم، وسمعت صوتًا من أعماقي يقول.

هذا الرجل الخالس بلا حر لك هو أبي الذي لم يحجني، وم وصعني فيه من عسر، ها هو ينقلب يسرًا، ليس لأنه وفري ف يقيني هاء، بل ميساعدني ليس على إحادة سؤال من أسئلة في مادة واحدة صمم مواد عديدة أدرسها فقط، بل يمكن أن أخده موضوعًا لأطروحني التي أعمل عليها في أن تدفعني خطوات إلى الأمام، بدلًا من موضوع في «فلسفة العلم» كما كتب أعترم من قبل

وفي عودتي احتضنت «عراري» بشدة حتى كادت أصلعه تختلف بين دراعي، وتركته مندشًا، وتقود ربانته ملقاة تحت قدميه، والسيارات تجري في اتجاه غصت فيه أبا نحو كوبري «رينهم» الذي تطل عليه عرعتي وقد تملعها عاصفة ذات يوم فتصططم به ثم تسقط فوق المقاهي وأخوابيت ورءوس العابرين منكسي الرؤوس كأن عليها الطير.

قل أن أعطف بساراً عند كوري «ريهم» لأعطف في النفق المتسع  
فأعبر إلى البيوت الآيلة للفتاء في الصفة الأخرى ولدت في نسي رعيه  
أن أذهب إلى الكوريش سعيًا وراء عيني «سميرة» السجلاوين.

قطعت الطريق على عجل، فذمان تهان الرصيف وعيان تحاذران  
من فروع الشجر المدلاة الملتوية كي لا أصطدم بها. وصلت إلى مدخل  
ميدان «عبد المعمر رياض» ولم أجد لها قفلاً راجعاً حتى وصلت إلى  
«الملك الصالح» وكانت غائبة.

وقفت يائساً أحملق في الماء الذي يدفع هدوء نحو الشمال في المرع  
الصغير للنيل، معيماً حصرة تمنحها إياه الحشائش والأشجار القصيرة  
المتناثرة على ضفتيه. ملأ أدنى غزل فتى لغتانه، حين اقتربا مني، فالتفت  
إليهما لأجد آثار «سميرة» في أيديهما وردتين حمراوين.

«هي هما، ولا بد أن أحدث عنها»، قلت لنسي، ومشيت في الاتجاه  
المصاد لقدوم الفتى والفتاة، لأرى لأول مرة بيوت حي «مصر القديمة»  
وورشها وحوانيتها البسيطة المتساعة، وأكتشف دور منها لكة تطل على  
استحياء من حارات جانبية متوارية عن عيني خلف بيوت الصف  
المشرف على النيل.

وحدثت «سميرة» بعد ربع ساعة من الهرولة، كانت الشمس فيها  
قد غابت، ولينتي ما وحدثها، إذ كانت حائسة إلى جانب فتى مديد

لقامة، مقتول العضلات، يتطاير شعره في السيم، ويتبدل على جبهته،  
كما يطير الدخان من قمه وأنفه، ويصنع سحابة رقيقة يحجب بها وجهه  
«سميرة» الحميل عن العابرين.

وقفت على بعد خطوات منها أعالي رجبت قلبي، وقميت لو  
«سقت الأرض» وابتلعتني، أو غمرتني المياه وأخفتني عن الأنظار  
حشيت أن تعتقد أنني أراقبها، وكاد يقتلي شعور طراً على نسي نا  
هدافها، وأن ما أوتته من تفاصيل صغيرة معها لأدلل على تعلقها بي  
عزداً أو هام، تطير من دخان سجاير فتاتها المشوق.

ترأحت خطوات إلى الوراء وقل أن أسدير وأعطيها طهري  
وأمني التفتت هي ورأني، وناديت:

- أستاذ «رفعت»

تقدمت خطوات حثي وأنا أكذب

- كنت داهماً عند قريب لي في «مصر القديمة»

لم تعش مما قلت، وقدمت لي من يجلس إلى جانبها:

«سلطة» جاربا.

- «سلطة»!

عندها وقف هو فانت عضلات صدره وزيدته تحت فائنة مطاطة  
ملتصقة بحسده، وسأل بصوت حش:

ألم تسمع عني؟

هزرت رأسي باقياً:

- لم يحصل لي الشرف.

اكتسى وجهه بضيق شديد، ونابت هي عنه لتهدي من غضبه:

- «سعد»، ابن المنطقة وشجيعها.

تقدم مني خطواتي حتى وقف في مواجهةي تمامًا، تاركًا ظله يام على الرصيف، وأناخ رأسه بحوي وفي عينيه نار، لمعت في بقعه الضوء التي بصعها عمود إنارة، وبقايا الدخان كانت لا تزال غلا محرية ففجها بحوي غلطة ولم أدر لم يتصرف معي بهذه العدوانية؟ وشعرت هي تنوتري واستعراي، فلطفت من الحو، فائلة.

فرصة ليعرف كل مكها الثاني

لكنها كانت معرفة الشوم والدمامة، فالقعة الرثة التي أقفل فيها اردادت قمتا لمعرفة هذا الغنى المغرور، الذي تسين لي فيها بعد أن «سميرة» لا تبادلني أي عاطفة، إنما هي مجبرة على عباراته، حتى يمكنها أن تمضي ها وهناك امنة

(4)

تألف في الأسبوع الثاني قليلاً مع شعلتي العربية، فأديتها بخفة كحلقة حطمت مكان الزهور إلى تحط عليها، وعص من الرقيق جمعت بقوداً أكثر في الأيام الأخيرة، وعدت يوم جمعة تُعيد العشاء، لأجلس على المقهى بداس العمل، أحتسي الشاي الثقيل الساحر، وأتفت دحان «الششة»

ما إن دخلت حتى وجدت «سعد» جالساً يلعب الورق مع أربعة في مثل سنه، ويحيط بهم أربعة مثلهم لم يلمحني، وأسعدت عن مرمى بصره بقدر الإمكان، ورميت أذني لتتقط ما يتحدثون به

كان كلاماً نافعاً، لكنه دال لي على أن «سعد» له سطوة عليهم جميعاً حتى يبادل المقهى حين ناداه، جرى إليه، وأنصت إلى طلبه، وما إن أعطاه ظهره وانتعد قليلاً حتى سمعت صوته خفيض العارق في الاشتمار

ربما يخلصنا من شرك

وحين وصل إلى البصة، همس في أذن رجل أربعيني يقف جلعهما مشغولاً بإعداد المشروبات الساخنة، ثم حرج إلى الشارع، ووقف برهة في وجه عربات الكهكة، وعبر إليها، ليعود بعد قليل ومعه بضعة برنمالات

ولم تمض سوى دقائق حتى كان يحمل صينية عليها عصير برنقال، ويتوجه بها نحو «سعد»، لكن رجلاً طاعاً في النسي، بهص من على



مقعده فجأة اعترض طريقه دون أن يراه، فاهتزت الصبيبة في يده، فسقط كوب العصير وانسكب على الأرض.

ما جرى كان أمامي، ورأى «سعد»، وهو يتابع انزعاج البادل واصفرار وجهه رمى الورق وهض من مكانه وتقدم نحو ي، وطرح حامل الصبيبة أنه يقصده بسوء، فترجع إلى الخلف مقرعاً، وتعثر قدماه في كرسي خال، لكنه تماسك، ليجد «سعد» جالساً أمامي أنا.

عرفني رغم اختلاف هيتي عن تلك التي رأي بها، فأيقنت أنه جعفر ملاحي في ذاكرته، أو استعداد ما جرى بينا غير مرة، وملأته طوبى عي يربطني بـ «سميرة»

وحين نطق أيقنت أنه يعرف عي الكثير. أحد كوب الماء الموصوع أمامي وشفطه في جرعة واحدة، وقال

- عشنا وشعبا، المشايخ يدخلون الشيشة.

ابتسمت وقلت له في صوت خفيض

لست شيخاً.

هر رأسه، وملأ وجهه حنق شديد وقال

- أعرف أنك تلميذ.

ومد يده وجذب الجبة والقفطان في غيظ، وواصل وهو يغمز بعينه اليسرى:

- لكنك لابس شيخ.. لزوم الشغل يعني.

وقهقه والتفت إلى أصحابه الجالسين هناك يتابعونا، وقال بصوت عال:

- تلميذ وشيخ ومطرب عاطفي.

انكأ على الكلمة الأخيرة، وهو يقرص ساعدي بأظافره الحادة، ويداهم يعرفون ما يرمي إليه، فعرقوا في قهقهات لادعة رجعت المكان، بطاير لم الدخان الخارج من الأنوف والخلوق، وتراقص الشر في مساحات الضيقة المحصورة بين الكرسي.

ولم أحدا ما أوقف به انزلاق الأمور إلى ما لا تحمد عقباه غير أن أقول - أنت من في البال يا أبا الرجال.

سرت الراحة في صدعة وجهه، وتساقطت حبات الشر عن كفيه الخشتين، فرماها على رؤوس الجالسين، وعانقي بعينين اردادنا اتساعاً، والتفت إلى البادل:

ساقع على حسابي للأستاذ

وعاد إليّ بوجهه وسألني

فسر كلامك.

بلعت ريقني، واعتصمت من حوي ما أعرف كذبه، ولا أتمناه ما حبيت، وقلت له:

- الجار يعرف أحياناً.

وكان يريد أن يصدقني، فأسعده كلامي، وترانخي في مقعده، وبدأ شعصاً آخر غير الذي عرف، فأحرسي مطره، إذ أدركت أن «سعد» يهوى «سميرة»، وأن طريقي القصيرة إليها بت فيه أشواك برة عمية، مستحرج باطل قدمي العاريتين بقسوة، وليس أمامي إلا أن أحفف الريف على قدر استطاعتي حتى لا يهرب مني كل دمي، فأحر صريراً.

وقمت قاطناً أنخبط في لباسي، العمامة في يساري، والدف في يمائي،  
والرقاق أمامي يحمل بظلامه الشامل، بعد انقطاع الكهرباء فجأة.

في الطريق تعثرت في حسم ملقى بجوار الحائط، وسمعت أنه حادة،  
عملت فرعاً لأرى، فإذا به ولد غائب عن الوعي، وأمامه راحة  
كرية. وجاءني صوت من الخلف.

- هذه آخره شم الكُلَّة... ضيعت نفسك يا ابن الكلب.

كان رجلاً ربعة، لم يلبث أن جلس القرفصاء، وشد الولد المغيب من  
أدبه، ثم صر به على قفاه بقسوة، فعض معه وهو يسعل، وعاباً معاً في  
عمق الظلام. وبقيت أنا مكاني أرقب آخره الموارب من باب بيت «عبد  
الشكور» الذي ينضح منه نور شحيح، وتقلت شهقات حادة، وصغير  
صلو مهيض، وأزيز كنبه متداعية.

(5)

مرقت من أمام الباب الموارب فلم يلمحي، وصلت إلى الساحة  
الصيقة التي تتوسطها حفرة المياه العمومية، شحصت بصري لأتبين  
الأحساد التي تصدر أصواتاً تصل إلى أذني من عمق الظلام.

كانت شهقات تختلط فيها الرغبة بالخوف، والإقدام بالإحجام،  
والاستسلام بالمقاومة أصوات نابعة من المناطق الوسطى في الأحساد  
تقدمت على أطراف أصابعي، وحملت في اتجاه ما أسمع، فباتت لي  
أربعة أجسام تتهاوش في حشونة، لثمين وفتاتين، كل واحد مع واحدة  
تتحجرت فافرقوا، مشى الولدان نحو الطرف الآخر واختبئا،  
وحرت التان نحو صفيحتين واقفتين في صمت تحت فوهة الحنفية  
المعلقة، تعلان عن نفسيهما في رحات ربعة متقطعة تنطلق من ثقب  
دقيق جدًا، وتضطلم بها.

خلص لهما جسدي في الظلام، فقالت إحداهن:

- يسعد مساءك.

تأطأت في الرد، فأنهمكت في ملء الصفيحتين. وحين رددت تحية  
المساء ضاع ما بظقت به في هدير الماء المتدفق من فوهة الصنوبر الضخم،  
لكنني سمعت الطويلة منها تقول للأقل طولاً:

- هذا شيخ.

وردت عليها في فرع:

- شيخ!

وسكتا برهة، وعادت الطويلة تقول:

- الشيخ الجديد لجامع «سيدي محمد المواردي».

ويرق الاسم في رأسي، فقد حدثني عنه طويلاً «عبد الشكور» في أول عهدي بهذا المكان البائس. قال لي في تبتل:

كنت أشهد بعد صلاة الجمعة في حصرة تقيمها أمام صريح «سيدي المواردي».

وكنت أرى المسجد بواقفه السعة متفاوتة الأحجام والأشكال التي تطل على شارع «بور سعيد» وأنا جالس على المقهى ويحلو لي كل

مرة أن أقف أمام اللافنة التي تعلو عه ومكتوب عليها: «إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدٌ أَقْبَرُ مِنْ آمَنَتِ يَأْتِيهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ»، لكنني لم أكن قد دخلته إلى الآن.

وتذكرت أن كراسة المدائح التي أعطاني إياها لأحفظ قصائدها بها صفحة في نهايتها مذكور فيها بتصرف ما ورد في «الخطط التوفيقية» لـ «علي مبارك» عن الطريق الذي كان يؤدي إلى صريح «المواردي».

«هذه القنطرة تصل البر الشرقي للخليج حيث كان حط الحمراء قديماً بالقرب من بيتان الخشاب، وهناك توجد منشأة المهرابي التي تؤدي القنطرة إليها. ومكان هذه القنطرة الآن على شارع الخليج المصري في النقطة التي يتلاقى فيها مع شارع علي باشا إبراهيم

شارع مدرسة الطب سابقاً). وقد أنشأ هذه القنطرة الملك الصالح نجم الدين أيوب في سنة 637 هـ/ 1240 م، وكان لها عقدان وقت إنشائها، وقد عرفت باسم (قنطرة السد) بسبب وجود السد الترابي الذي يعمل سوياً في هذا المكان حتى تنتهي ريادة النيل إلى 16 دراعاً فيمتد حينئذ. حدث تعديل معماري على القنطرة في العصر العثماني فأصبحت ذات عهد واحد، كما صورها الرحالة بوردون في رسمة للاحتفال بكسر سد الخبيخ. كذلك ذكر في محاضر لجنة حفظ الآثار العربية أن هذه القنطرة مكون من عقد واحد مبنية من الحجر، ووجد على جسم القنطرة أسدان منحوتان برداءة تشبه الأسود التي كانت على سور مجرى العيون، وتم عليها لتخفف عن الإسلاميين وقد وقع بيبور هذه القنطرة في خريطة باسم قنطرة الجنينة ورمز لها بالخرافا كما وقعت في خريطة الحملة الفرنسية باسم قنطرة الخير برقم 278 في المربع ٧14، كما عرفت في القرن التاسع عشر باسم قنطرة المواردي نسبة لصريح سيدي محمد المواردي المحاور لها.

هكذا قرأت ما ورد في الكراسة بعد أن خلوت إلى نفسي في غرفتي، وصحكت حين وجدت حط «عبد الشكور» تحت المنقول من «الخطط التوفيقية» ينشأ أنه طالع هذا الكتاب في مكتبة «دار الهلال» التي أتبع له أن يدخلها ذات يوم برفقة صديقه المطعجي «سيد أبو اليريد»، وقلت في نفسي.

- دخل «عبد الشكور» إلى قلب الدار ولم أر أنا سوى مدخلها المهيب، ناهي العائلي وسلمها الطويل ورحل أمها الذين لا يملكون رداً معيذاً على أمثلي.

أعلقت الكراسية، وقمرت إلى رأسي فحاة يد «عبد الشكور» وهي  
ممدودة نحو جيبني تطلب كل ما حصلته اليوم من ورق، وكيف أني  
تعلمت من اليوم فقط أن أخفي عنه بعض ما كسبت، بعدما تيقنت من  
طمعه الشديد.

كان قد صادفني منذ اليوم الأول حين قال:

- اعتبرك واحداً من أولادي، وأنت أيضاً تسعى إلى ذلك.

ورفعت عيني إليه وملوهم دهشة، ففسر ما قال

عيس من بستي، فإن أردت سأروها لك، وأولادك يصبرون  
أحفادي.

وساورتني طسوان أن تكون قد صارحت بما أتمناه، لكنه بدد طنوني  
حين قال:

- البنت لم تفانحني في شيء، لكن لا تس أني حبيب عرام.

ومد يده إلى جيبني هذه المرة، وفردها عليه حتى غطاه، وهو يثب  
وحده نحو، ثم رَكَر في عيني، فجعلت منه، وزاع بصري عنه، مدفوعاً  
بدفقة عازمة من الخجل، اهتر لها كيانتي.

عندها قهقه، وقال وهو يعيد يده إلى حيث أتت

- أنا موافق، ولن أجد من هو أفضل منك.

ثم نظر إلى الدف العالق في يدي، وواصل كلامه:

- ما يكسبه أولادي سيعود إليهم، سأهدم هذا البيت وأنسي مكانه  
عمارة، ستة أدوار، كل دور على شقتين، والشقة 75 متراً، ولو شديت  
حبيك معي ستكون لك شقة .. لا .. شقتان، واحدة لك والثانية لـ

«سميرة»، يعني دور كامل تعيش فيه بتبات ونبات، وتحلف صبيان  
بانت.

وهذا كنت أعطيه ما أكسبه عن طيب خاطر، وأقول في نفسي: «إن  
سحت «سميرة» فقد رجعت، وإن حستها فلن يصيبني صياح أي مال  
مى لو كان مال قارون».

لكن هذا كان قل أن أرى «سعداً» يجلس إلى جنبها على الكوريش،  
أعرف أنه حار لقب «سلطه» لقلبه المت، وسوائقه المتعددة، ونب  
المرلم الذي يستعين به أيام الانتخابات ليمسح مناصري منافسه من  
أبو صول إلى خان الاقتراع

أكثر من حكى لي عنه كان «عاطف»، ولأحطت أن يده اليمنى  
برعش قليلاً، وفي عينيه بقايا خوف لا تريد أن ترحل. وأزاح القميص  
عن كتفه، لأرى آثار شر «سعد» محمورة كقوس مكسور، يمتد فوق  
الكتف ثم يحيط نحو الظهر.

يضع يده على قوسه القديم، وينوم على أسنانه، ويقول:

- كلما لمستته عاد ليّ الألم الذي شعرت به وقت أن غرس مطواته في  
لحمي وعظمي.

وأنسي «عاطف» أنه كان أول صحابيه، ويعدده سالت في الأربعة  
دعمه، وشوحت وجوه وجاه، وارتجعت قلوب، وانطلقت صرخات  
وأنا، وامتلات عيون بالدموع، واضطربت أحوال، وجرى الناس  
يمباً ويساراً، وبعضهم ابتغوا أنستهم، وأحرون توعدوا «لثار»، لكن  
لم يل الصائتون والصامتون من «سعد» فاستعمل شره، وانجذب إليه

فنية من عدة أحياء سكية محاورة، بعضهم يكره ساءاً، لكنه يجمع به،  
وصاروا عصاة يحشاهما الجميع، ووصل صيتها إلى الأحياء المجاورة  
وحين فانتحت «عد الشكور» في شأن «سعد» وعصاته، رام وشحم  
صدره، وقال:

- لا يقدر على القدرة إلا صاحبها.

وتاه طويلاً في نفسه، وكنت أتابعه صامئاً، أمش الحفوف عن نفسي  
على قدر استطاعتي، وأحمل في العتمة الرائقة بالرده الضيقة لعل أرى  
«سميرة» التي يأتي صوبها وهي تساعد أمها في طهي الطعام، وحين  
عاد من شروده، نظر إليّ وسألني:

- ألك عزوة في بلدك؟

هزرت رأسي بالإيجاب:

- نعم.

ابتسم في حبت وقال:

- يجب أن تدبغ هذا الخبر هنا، لتحمي نفسك .. فمن له طهر لا  
يُضرب على بظنه.

- بيني وبين أهلي أكثر من خمسمائة كيلو متر.

- حتى لو كانوا في آخر الأرض، حسهم سيكون معك.

وتنحج وقال مستكراً:

- ألم تعلمك الجامعة شيئاً؟

ضايقتني سؤاله، وامتنعت عن الإجابة، فوجدته يقول:

جامعة الحياة علمتنا أن «الصيت ولا التني».

لا أحب الكذب.

ليس كذِباً، ألم تقل إن لك أهلاً.

- نعم، لكنهم ناس غلابة.

- غلابة أم أصحاب أملاك .. الكل عندهم لا يترك ثاره.

صحكت وقلت:

- يبدو أنك تتوقع أن يقتلني «سعد» وعصاته.

هل أريدك أن تردعهم، فإن عرفوا أن وراءك من سيأثر لك  
ستجسونك، فهم في دخالهم جبناء، ولا يغرنك الصوت العالي  
والأسلحة البيضاء

ونظرت إليه في مكر، ففهم ما أريد أن أقوله، فطأ رأسه، وقال:

سَكْتُ خوفاً على أولادي، وسجن لا عزوة له، لا في «تل العقارب»  
ولا في كل «القاهرة». أما رجل مقطوع من شجرة.

وسرت في نفسي مخاوف من هذا الرجل الماكر، الذي يستولي على  
رزقي يدعوى أنني صهره المنتظر، والأل يريد أن يستعمل أهلي المساكين  
في مواجهة من يقهره قل مجيش إلى هنا. وشعرت أنني أبتعد عن الطريق  
الذي أنيت لأسلكه في هذه المدينة المزدهمة، وصاق صدري بما أنا مقدم  
عليه

وفي هذه الليلة لم يأتي عح المتلذذات بالمصاحبة، بل شجار أم  
عجوز مع ابنها الذي سرق فلوس كسبه واشترى بها الحشيش، وصرخ  
روجة من صرب روج يجلس طيلة النهار والليل على المقهى بينما تدور

هي على شفق «حار دن سیتی» لتغسل ملاطها، وتمنع مساجيدها  
وسنائر ها، وتلتقط ذرات الغبار العالقة فوق أناثها، ويكاء ولد حجر  
أبوه عن أن يوفر له مصاريق كتب الدراسة وأدواتها.

وتقلت في سهدي، وشعرت أن العراش يعوض بي ويرميني إلى واد  
سحيق، وبانت جبتي وقطاني وعامتي المعلقة على مسامير مغروسة  
بالخائط، كأنها ثلاثة وحوش كاسرة، متداوة الأحكام، تراقبي وتنتظر  
حتى أنام، ثم تهجم علي وتقرسني.

وتزاحمت الفلسفات التي درستها في رأسي، وبدت عاجزة عن  
تفسير ما انتهى إليه حالي، وحاولت أن أصغي ذهني حتى أنين موضع  
قدمي، لكن الكدر لم يذهب عني، وشعرت أن ذاكرتي تتشقق كالأرض  
الشرقية، ويتساقط كل شق في ناحية، ويتمت إلى ذرات من غبار،  
تدور في دوامات عاصفة، تأخذني إلى أقصى مكان، وليس بوسع الناس  
أجمعين أن يعيدوها إلى هيئتها التي كانت عليها.

وتحيلتني أقف في وجه العاصفة والتراب يكسوي، ويدخل من  
فتحات أنفي وأذني وفمي، وكل مسام جدي، ثم يملأ مقلتي، ويشرب  
دمي، فيصير طيباً، يسد أمامي الرؤية، فلا أرى شيئاً حتى يمسي.

(6)

لم أكن بحاجة مرة أخرى للذهب إلى الكوديش بقلب مرتجف،  
وعقل عارٍ في الطون، كي أتبع خطي «سميرة» فقد جاءت هي إلي  
عن طيب خاطر، وعشنا ظلام لكنه يخلو من السكينة.

كنت عائداً أجبر ساقبي من فرط التعب، وما إن فارقت هامتي حواف  
مسور السلم المتاكل حتى وجدت شيئاً يتحرك وراء حبل الغسيل،  
يعطس ويطفو، ويحرك قطع الملابس في وجه ربح خفيفة.

تقدمت في هدوء وألقيت التحية:

- مساء الخير.

غرد صوتها الرخيم.

- مساء النور.

ورفعت هامتها، فوجدتها هي، ودانت لي اللحظة التي انتظرتها  
طويلاً كان قلبي يرتجف فكري ورأيت البيوت المنهالكة كدها تراقص  
حولي، وثقل لساني، ومرت بالظلام الذي يوارى خجلي وانكساري.

لكنها قصّرت المسافة أمامي، وقالت من دون مقدمات:

- ليس بيني وبين «سعد سلطة» شيء.

لم أردد، وتقلب حالي بين فرح وحزن، فهاهي تستني بطريقة غير مباشرة أن داخلها شعورًا جميلًا بحوي، لكنها تصعني أمام هذا الفاجر وعصابته.

لم تدع هي صمتي يطول، وقالت:

- عمك «عبد الشكور» يعرك قوي.

عمي، ويعري! يا ولتي، تقتممني على مهل وفي رسوخ، ولم يعد أمامي سوى أن أبادها الكلام:

- وأنا أعزه أكثر.. والله أعلم.

أزاحت ابتسامتها قطعة الطلام الراكدة أمام فمها، والتفتت إلى غرفتي وقالت:

- عيشة العزّاب صعبة.

بادلتها الابتسام، والالتفات إلى باب غرفتي الخفيف المقبوض من وسطه وجنيبه وقلت لها:

- تعودت عليها.

لكنها فاجأتني، واقتحمتني أكثر:

- عادة ما أغسل الملابس وأشهرها قبل الظهر، اليوم نعمدت التأخر لأننيك هنا.

عباد قلبي إلى الارتجاف، وسرت رعدة في بدني حين لمست أطراف أنامل «سميرة» يدي بلا قصد منها، كانت دافئة وناعمة ومثيرة، رغم أنها لم تكن سوى لمسة خاطفة.

قلت لها من دون حساب:

- أنت فاتنة

اتسعت حدقتها وردي.

- لن أحاري فيلسوفًا في الكلام

فتشجعت وقبضت على راحتها الطرية، وقلت لها:

- لم أر مثلك من قبل

ابتسمت وتساءلت:

- ولا في بلدكم أو في الجامعة؟

هزّزت رأسي ناعيًا:

- لم أر قبلك أحدًا.

اتسعت ابتسامتها وتساءلت:

- ولا بعدي؟

رددت عليها:

- لن أرى بعدك.

ألهذه الدرجة؟

- أكثر عما تتصورين.

أشرق وجهها بفرح غامر، وسألتني:

- متى حدث كل هذا؟

- من أول نظرة.

وسارت نحو السلم، وعند أول دوح التفتت لتجدني واقفاً في مكان  
أناأمل حسدها البدن الذي يتلوى في بقعة السور الوحيدة التي تصعب  
لمبة مغروسة في الحائط بين الطابق الثاني والسطوح، ووددت في هذه  
اللحظة لو جريت نحوها واحتضنتها بقوة، كي تشعر بالبار التي تستعير  
داخلها.

لكنها لم تلت أن احتفت في انحناءات السلم، وتركت ظلها مرسوماً  
على النور الهادئ، مشيت أباً إليهم، ووقفت عند طرفه، ووددت لو ملت  
عليه بكر حسدي وأحدثت بين ذراعني، إلا أنني حمدت مكاني، والدهشة  
عما جرى تعلني، ووحدت نفسي أردد في سري مع «ان عروس»

«يا بنت جملك هبيني .. والهيشة جت في العباية

رمان صديقك دو شني .. خل فطور عشايا»

وتنبت لو كنت قد قلت لها هذا صراحة في وجهها، ووقفت أمامها  
أشرح كل شطر، من هذا «المرع» الدبع، وأطيل في الشرح حتى مطلع  
الفجر، لكن فزعني صوت شق أدنى بقسوة، حين قال  
عشنا وشقنا.

ثم أطلق قهقهة رحت المكان، ما إن حددت مكان إطلاقها حتى  
انتهت، وتركت حلقها جوفاً خطف السعادة التي عمرتني بما قالته  
«سميرة» قل قليل، جعلني ألتفت حولي كالمجنون، شاخصاً بصري  
في كل ناحية، لكن لم أر أحداً.

في اليوم التالي عرفت كل شيء، حين صعدت الأتوبيس بالدف  
والقصيد، فما إن نقرت عليه فصهليل، حتى وجدت شيئاً حادثاً بمرع

مسي، وفتح نافذة لدمي كي يهطل عريزاً فوق أقدام الركاب، لتنداح  
مرحات النساء، وتملأ الدهشة والخوف عيون الرجال، وهم يتابعون  
ذلك الذي طعني وقصر، ثم داب في زحام ميدان «السيدة زينب».



## الفصل الرابع

( 1 )

اراني «سعد سُلطة» في مستشفى «أحمد ماهر» ومعه خمس  
بغالات، أربع منها مشقوقات من جانها، واخمس مقسومة بصفيين،  
وسر عصارها الخلو في الكس البلاستيكي، وتقطر من ثقب به على  
البلاط، فيفتح التمل عيونته، ويدب نحوها في حذر.

وصعها إلى جانبي على السرير المتها لك، فسقطت واحدة منها على  
الأرض، واتسع شقها، لكنه لم يلق لها بالاً، بل ثَبَّت عييه في عيني وقال:  
- تجرح البرنقالة في جانها، ويمكنك شفها، وقد تقع على الأرض  
وتعصر . هذا ما يمكن أن يحدث لأي بني آدم متناء قد يصاب بجرح  
سيط لا يصمي كل دمه، ويلحقه الأطباء فيبقى حيّاً، ولو كان الجرح  
عميقاً يمكن أن يموت، وتتعفن جثته، أو تأكلها كلاب السكك.

وفهمت كل ما يرمي إليه، ولم أكن في حاجة إلى هذه الريادة كي  
أعرف أنه هو وراء ما جرى لي، فمن طعني وهرب هو من الذين لمحتهم  
يتحلقون حول «سعد» في المقهى، هكذا استعدت ملائحة الجانبية حين  
اسدرت صحاة في الاتجاه الذي هاجمني منه الألم، وتيفنت من هذا حين  
تذكرت عقب إفاقتي ما قاله في أذني بسرعة خاطعة:

- لا تطمع في من هي لعيرك، وإلا سر جعك لأهلك نساير لحم في  
صدوق.

وبعدها استعرت النار في جانبي الأيمن، وتورع دمي على ملامح  
وأحذية الخالسين، وسمعت صرحات لم تلتصق أن ماتت حين فزع  
الوعي.

وها هو وعيي يكتمل حين باغتني «سعد» بسؤاله:

- سيأتي صول من قسم شرطة السيدة ليأخذ أقوالك، فيم ستحرقه؟  
صمتُ قليلاً، ثم اسدعت كل ما درسته عن التحايل وأخته  
- سأقول ما تريد أنت أن أقوله.

اكتسى وجهه بغضب، وبعج متضجراً، وقرب فمه من أذني وهمس  
- من ضربك شخص مجهول.

وسيسألك الصول:

هل لك عداوة مع أحد، فأخبره لا.

واتعد بجسده إلى الوراء وواصل كلامه:

- ليكن في علمك أنك لو اتهمت أحداً، فسيتم منك، والشرطة  
لن تخفيك.

ابتسمت وسألته سائحاً:

- وهل هناك انتقام أشد مما أنا فيه؟

مصمم شفتيه واقترب من جلديد وداس على ضروسه وهو  
يتوعدني:

قد يفتلك حرقاً في غرفتك التي تنتظر عودك كبريت واحدًا، أو  
س في حينك قطعة خشيش وتهتك بالانجبار في المخدرات فيضيع  
سعيك.

وهص وتوجه نحو الباب، لكنه عاد مرة أخرى وقال:

ما لا تعلمه يا سي، التلمذ أنا نحن أيضاً رجال شرطة في هذا  
اللب، كثير من الضباط صاروا ماء، ويمعون ما بمعنه.

وجاءني «عراري» في اليوم التالي، وحلّس بجواراي صامتاً، وفي عييه  
ربيع، وعي وجهه صفرة داكنة، والكافة قد قرشت سوادها في قسبانته.  
دون شاردًا في سقف العنبر، ثم يعود ليحيط بصره على الأجساد المسجاة  
وهي تنقلب فوق أوجاعها، وينقدها فجأة إلى عينيّ أن، ويقول:

- الحمد لله، جاءت سليمة

كررها ثلاث مرات، وفي كل مرة كنت أقول له

ربما كبير وعالم بالحال.

لكنه استجمع شتات نفسه، وقال بلا مواربة:

- «سعد» جاء اليوم إلى البيت وطلب عرفتك لو احد من أصحابه.

وأصابتني العجبة، وارتمى أمامي وجه «سميرة» وهي واقعة على  
مدحرج الرقاق تودعي بعينين دامعتين، وأنا أغوص راحلاً في رحام  
شارع «بورسعيد» تأرجح حقيتي القديمة في يدي، وبها ملاهي  
القليلة القديمة وكتبي، ونحو تحت خطواتي الويدة تفاصيل حمية لم  
أكن أظن أن ترحل هذه السرعة

ورأيت نفسي أقف هناك تحت البتاية الشاهقة، وأضع الحقيبة على الأرض، ثم التفت إليهما، كي أملا عيني من وجهها المليح، وأنا أردد في سري قول «ابن عروس» الذي طالما سمعت شاعر الرانة يشدو به «يا قلب لا كويك بالنار .. وإن كنت عاشق لا يزيدك يا قلب حملتي العار .. وتريد من لا يريذك».

وراح ذهبي وراء الصورة التي تحملها، ولم أشعر بوجود «عزاري» إلى حوار، يخلق في ملاحي التي كانت تنقص، إلى أن سهي هو حبر غمزني بإصبعه، وقال:

- أبي يياطله، لكن لا أعتقد أنه سيصمد أمامه.

رفعت يدي، وحركت أصابعي لتضرب الهواء القليل الذي يتسرب إلى العنبر، وقلت في ضجري:

- لا داعي للمهاطلة، هذا مالكم وأنتم أحرار فيه.

صمت برهة، ورد في هدوء

- أبي يحبك، ومستحيل أن يتخلى عنك.

فتساءلت صامتة: «يجني أم يجب ما أكسه له؟»، ونظرت في عيني «عزاري» فوجدت الحيرة تسكها، ثم انشغل كلاهما في أبن رجل طاعن في السن يعدل إبه من جلسته سائداً ظهره إلى وصادة قاسية، حتى يتمكن من أن يعطيه كبسولات وجرعات دواء.

عدت إليه لأجده لا يزال شاخصاً بصره نحو العجوز المتوجع، فمددت إصبعي إلى ذقنه وجذبتة نحوي بلطف وقلت له:

- لا أريد أن أسبب لكم متاعب مع هذا البلطجي.

اعرورقت عيناه بدموع وقال:

رأيت بطارد «سميرة» قبل شهرين، وحين اعترصت طريقه، لمسي ثلاثة من عصابته، فأمسكوا بي، ثم قيّدوني إلى عمود نور عطفي كلامه فهاجته

أنتم أربعة إخوة، ويعمل بكم هذا

صحت في مرارة.

- أربعة لا ظهر لنا، وهم أربعون وخم ظهور.

أربعون!

- وأكثر.

وصمت قليلاً وقال:

تجاسرت ذات مرة وفدما شكوى ضده في قسم شرطة «السيدة ريس» فصيغوا شكوانا، وأخطر الضابط «سعد» بها فيها فتهجم علينا، ولولا «سميرة» لأذانا.

أريح فني لطفه اسمها، وكتمت غيظي وفدت له باندوش

- «سميرة»!

- على جبروته هو ضعيف أمامها، وأبي يعرف هذا ويلاعبه بها.

قطعت مسافة أكبر نحو الحقيقة وسألته:

وهل يمكن لأبيك أن يوافق على ارتناطها بهذا الشخص؟

هز رأسه بالإيجاب وقال:

- ليس أمامه خيار.

ثم طأطأ رأسه، وبانت في عييه أشياء غير مرئية، وخفت أن يتركبي لظنوني ويرحل فسألته من جديد:

- هل توافقني على هذا؟

جال بصره في أرجاء العنبر، وعاد لي بإجابة أسعدتني:

- هي تكرهه، لكن تخشى أذاه.

- إذا كان يحبها فكيف يؤذيها؟

- الحب عنده هو أن يملكها .. كل من حوله عرفوا أنه يريدنا، وصعب عليه أن يعجز أمامهم عن بل ما يريد .. هدهما قل شهرين بأن يشوه وجهها بـ «مئة نار».

وبلع «عرازي» ريقه، وشعرت أن جسمه يتصاعد أمامي، وشاربه الصغير يهتز، وقال:

اخجة الوحيدة التي يقدمها أبي هي أنها لا تزال صغيرة، ولا يمكن للمأدبون أن يعقد لأحد عليها قبل أن تبلغ الثامنة عشرة، و«سعد» بعد الأيام حتى تستوفي السن، ويتصرف وكأنها له حبيبًا.

هررت رأسي وكأنني أنقص عنه كلام «عرازي»، وقلت له

دعك من كل هذا . أريدك أن تأخذ مفتاح غرفتي وتحصر لي ملابس أخرج بها من هنا . فقطان أريك وجهه تلتطحا بالدم.

مد يده فأخذ يدي وداس عليها، ثم نهض وتوجه نحو الباب، ورأيت خطواته بطيئة، وهامته تعانق قدميه، فلما غاب عن عيني شعرت أن جرحًا أكبر يزف في نفسي، ولأول مرة في حياتي يتملكني إحساس

حرف بقلة الحيلة، بل بالقهر، فدفست رأسي في الوسادة الخشنة، وبللتها بدموع دافئة

وجدنا أنفسنا معرلين عمن حولنا، فملأت عيني من وجهها الرائق،  
قلت ها

- لم يكن هناك داع لتعبي نفسك ونأتي إلى هنا  
ردت وعيناها في عيني.

- لا يوجد عندنا من هو أغل منك حتى نتعب له.  
وساد بيننا صمت، قطعتة هي:

- كما أن ما جرى لك هو بسبيي أنا.  
وجدت نفسي أعبر خجلي وأقول:

- أنا فداؤك يا سميرتي.

- سميرتك!؟

- وجليستي وأنيستي الآن.

مدت الورد إليّ، فأخذته منها وهي تقول:

- أحياناً يصعب عليّ فهم كلامك.

ضحكت للمرة الأولى منذ أن دخلت إلى هنا، حتى ألقيت جرحي،  
وقلت:

- أنا مستعد أن أتخلى عن الفلسفة من أجل عينيك.

لكنها فاجأتني:

- لا، لا.. أتمنى لك أن تكون أحسن واحد في الدنيا.

## (2)

لمحت من تحت إبط الممرضة وهي تصنع المظهرات على جرحي وجه  
«سميرة»، كانت تدخل العنبر على استحياء، وهي تطوق بدماعها كيس  
ورقياً تسده على صدرها، وفي يدها الأخرى طاقة زهور بيضاء وحمراء  
راحت تمسح الأبرمة المرافضة على مسافات متساوية ويجلس أمامها  
وعليها كل مريض ورائره، ولم أقو على أن أنادياها، فوجهي كان يعاين  
وجه الممرضة، وقلت لنفسي: «دعها تصل إليك بنفسها».

ووصلت بالفعل، فقد رأيته، وأشرق وجهها بانتسامة عذبة،  
وسارت بحوي متهللة، ووقفت عند رأسي. وضعت الكس على  
الأرض، ومدت طاقة الورد قبالي، فوصل عيرها إلى أنفي وأنف  
الممرضة، رفعت وجهها، ونظرت في عيني وصحكت وقال:

- جاءك الشفاء

ثم للممت أدواتها ومطهراتها وانصرفت إلى السرير الذي يلي، وهي  
تزجر المتزاحمين من الزوار:

- هذا مستشفى يا حضرات وليس سوقاً.

لم تتوقف الجلبة، فصرخت:

- من لا يبيع لسانه فسأطرده من هنا.

حين سقطت الكلمة أب التي لا تخطئها عين ولا أذن، لاسيما أنني قلتها  
لن نثل شديد.

مدت على «سميرة» وسألتها:

- من هذا؟

بعثت في عيظ وأحابت

- واحد من عصابة «سعد سلطنة».

امتزجت في نفسي مشاعر الخوف والاشمئزاز، ولم أحد ما أقوله لها  
سوى

- آسف لما جرى.

نمasket قليلاً، حيث حلف الازتعاش والابقاص في عيها، وقالت  
وكأنها تحاطب نفسها:

- لا أخاف منهم، ولن يجبروني على ما لا أريد.

لكن ملاثني في هذه اللحظة شكوك عارمة في أن تصمد هذه الفتة  
الشقية بحالها وحيي في وجه تلك لريح العاتية، إلا أنني لم أفقد الأمل  
في أنها قد تستطيع، وقلت لها، وهي تلتقط حقيبتها الصعيرة:

- لن أنسى هذه اللحظة مهما حصل.

فابتسمت وقالت وهي تهوول في اتجاه باب العنبر:

- ولا أنا.

وهملت أن أقوى على صمعي، وأقول لها الكلمة التي احتزنتها طويلاً  
في أحشائي، لكن لم أستطع، ووحدت الانكسار يرحف إلى عيني من  
جديد، وأذهب برأسي إلى الساحة الأخرى، لكنها فجأتني من جديد،  
ووضعت إصبعها تحت دقي، وأدارتني ناحيتها، ثم مسحت العبد  
بعينها فوجدت الكل لا هياً عما، فلتمت حدي بقيلة حافظة، أربعش هـ  
جسدي، ورحت أصابعي لتدخل في أصابعها الطرية الدافئة.

وذابت مسافات الصمت بيننا، فحرارة جسدها وروحها إلى  
وصلتني أبقت الكلام داخلي، وشجعتني على السوح، وجدتها إلى:  
وقلت لها:

- أحيك.

فأغمضت عينيها في حفر، وتهددت عميقاً، وتركت أصابعها تنام في  
كفي، ووددت لو توقفت أيامي عند هذه اللحظة لا تعادها أبداً، لأنعم  
في وحاب حيي الأول.

فحاة فسد كل شيء، بردت يدها، وسحتها سريعاً، واسلجت  
مقلتها على اتساعها، وشهقت حائفة، وهي متجهة نحو باب العنبر.

دهمت عينا في مستوى نظرها رأيت شيئاً حليق الرأس، له حية  
قصيرة مشددة وشارب مقصوص بعاية، وفي جيبه قطع عائر يصنع  
حطاً أسود عريضاً كان يحرك أنفه يميناً ويساراً بطريقة متكررة،  
ويحملك في سريري.

بدأ أنه كان واقفاً في مكانه مذممة، وقدر أي كل شيء من المؤكد  
أنه لم يسمع ما قلناه وسط الحلة التي صعبها رانرو المرضى من جديد،  
غير مبالين بتهديدات المرضة، لكن ربما يكون قد قرأ حركة الشعاع،

خزحت من المستشفى وحيداً، ولم يكن هناك أحد في انتظاري،  
وليس معي سوى كس من اللاستيك فيه الجثة والعمة والقعطان  
لم أجد صعوبة في أن أمشي بخطوات وثيدة متأملاً المطاعم والمقاهي  
والجوايت التي تباع أصنافاً مختلفة من السلع، حتى وصلت إلى ميدان  
السيدة.

كان جيبني حاوياً، فالقود التي ادخرتها من وراء عين «عد الشكور»  
تركتها في عرفتني التي سأجبر على الخروج منها مريغاً، وكنت حائفاً  
ومنهكاً، ومع هذا تأسست بالشعر والأشياء والمعالن التي أراها في  
طريقي، واكتفيت بترك أنفي يذاعب أمحره الأطعمة ورائحة الشواء  
والقلي المسمنة من المطاعم، ودخان الأراجيل الخارج من أوقف وحلوق  
الحالسين على المقاهي.

عند الميدان برق في رأسي أن أذهب للسؤال عن مصير الطلب الذي  
تقدمت به إلى «دار الهلال».

كنت كعريق يتمنى أن يرى أية قشة محمولة على ظهر الموح، ليقض  
عليها بكل إرادته أملاً في النجاة. سيطر علي هذا الشعور وأنا أنعطف  
يميناً نحو شارع «المتنبيين»، وقطعت المسافة إلى موظف أمن «دار  
الهلال» في زمن أطول من المعتاد.

ولما بان وجهي من الباب العالي، انقضت ملامح أواقف أمني  
قال  
ليس هناك جديد.

ورميله الذي انتشم في وجهي من قبل رقب خلبي، وجدسي من يدي  
سي أخذ أدني إلى فمه، وهمس:  
سأرسلك إلى رئيس قسم لأرشيح، ربها يكون في حاجة إليث  
ألقيت بطرة فاحصة عليه لأستوثق مما يقول، فواصل كلامه:  
- سمعته يشكو من قله المحررين يدي يعملون معه، وأنه قد كتب  
إلى رئيس التحرير يطلب المزيد.

وقبل أن أخلع عيني من وجهه، أراد أن يطمئنني:

لا تقلق، فهو رجل طيب، طالما يجلس معي على مقهى «الهلال»  
ويذهب الطاولة ... قل له إنك من طرف عم «زهير».

تسربت بقايا ألوحع الراكدة في حسدي، ومثلاً وجهي بوشراق  
الأميل، ورغم ارتفاع السلم وطراوة جرحي، صعدته راصياً حتى  
وصلت إلى الردهة الطويلة المسيحة التي تفتح فيها مكتب عديدة،  
وسألت عن مكان الأرشيف فارتفعت أصابع لتشير إلى أقصى مكان  
في المبنى

دخلت في هدوء، فوحدت رجلاً يجلس تحت مشبه التدم،  
وحوله شباب يمشكون في أيديهم مقصات صغيرة تلمع في شعاع  
شمس تسرب من فتحة الدفلة، يصربوها في صمغيات آخراند  
المكرومة أمامهم فتصير قصاصات مختلفة الأحجام. هناك آخرون



غيرهم يأخذون ما قصوه ويلصقونه على ورق أسفر وأصفر  
خفيف بصمغ خفيف، ويكتسبون تحته بالأقلام الجافة كلمات  
لا أراها، وإن كنت أدرك أنها قطعاً مجرد تواريج أو عاوين أو تعليقات  
بسيطة على ما ألقوه من أخبار وصور.

وقفت دقائق أراقبهم، دون أن يشعر بي أحد منهم، وبذكر  
«حسنونة» والصور التي يقصها ويحفظ بها ليطارد أصحابها في المساء  
عند مسجد «عمر مكرم».

أصابني ما رأيت بكآبة شديدة، فأنا أريد أن أكون هنا لأكتب ويقرأ الناس  
مقالاتي التي سأضع فيها حصيلة ما أعره وما سأعرفه، وليس لأجلس إلى  
مائدة طويلة على كرسي صغير تحت رفوف ممرية من المحلات والصحف  
القديمة، كي أصنع قصاصات والصفحة وأكتب عليها كلمات بسيطة،  
لا شك أنها أصحاب الصور أو تواريج الوقائع وأسياء الصحف التي  
نشرت فيها.

عرفت أكثر حين صارت عياني فوق أحدهم الذي كان منهمكاً في  
مهمته، يؤدبها بامتنان شديد، وبأن ظلي على قصاصاته رفع رأسه ليحدثني.  
لم يتكلم إنما نظر إلى الرجل الأشيب، والذي كان قد تسه لي أيضاً  
سخير!

- أسف، دخلت بلا استئذان .. ووجدتكم مشغولين فلم أشأ أن  
أعطلكم.

امتلات عيناه بالسؤال:

- من حضرتك؟

- جئت لأسأل عن عمل هنا في الأرشيف.

- من الذي جاء؟

أنا.

- ومن أنت؟

- اسمي «رعت عبد الحكيم» ليسانس آداب قسم فلسفة، وطلبت  
دراسات عليا في «جامعة القاهرة»، وقدمت طلباً منذ مدة للعمل هنا.

- ها في الأرشيف؟

- لا، لكن عم «زهير» أرسلني إلى حضرتك.

- أين خطاب استلام العمل؟

- لا يوجد معي أي شيء.

هز رأسه والتوت شفاهه بابتسامة ساخرة، وقال:

- هل وافق رئيس مجلس الإدارة على طلبك؟

- لا أعرف .. لكن موظف الأمن أخبرني بأنه ليس هناك جديد.

- لم أتيت إذن؟

- عم «زهير» أخبرني بأن حصرتك تحتاج إلى محررين جدد، وجئت  
لأسألك إن كنت في حاجة فعلاً إليّ.

أزاح السخيرة عن شفتيه، وكست ملامحه بجديّة طاهرة، وأشار  
بكفيه إليّ، وملت نحوه، فريت كفتي بحنان وقال:

- الأمر ليس بيدي يا إسمي. عموماً اجلس واكتب طلبّي، وقدم  
المشيتة.

وجلس على مقعد في طرف المائدة الطويلة، وأمدني أحد الشباب  
 ورقة بيضاء وقلم، فكتبت طلبتي بلعة تلين لها القلوب العاصية القاسية،  
 وأعطيته إياه، ومصيت إلى الباب الخارجي، وأنا أقول في نفسي: «خطوه  
 واحدة إلى الأمام أفصل من الوقوف في المكان»

#### (4)

قبل أن أدخل الرقاق لمحت الذي طعني قادمًا من مسجد سيدي  
 «محمد المواردي»، كان يطالع القبة الخضراء باستهانة، ويشيح بيده في  
 وجه المواقف الصغيرة ويقهقه، وجسده يرتج حتى يكاد يصطدم بالجدار  
 ثم يعود إلى غير الشارع.

بدأ لي أنه خمور، ولما اقترب مني فاحت رائحة الكحول من فمه،  
 لكنهم لم يكن فاقنا وعيه تمامًا.

عرفني، وقال لي باستهتار:

- كفارة يا عم الشيخ.

لم أرد عليه، ومصبت في حالي متسرلاً بظل جدران تكاد تتلاقى،  
 لكنه لم يتركسي أذهب في سلام، بل سبقني خطوات، ثم اعترض  
 طريقي، ووقفت فدفع قدميه حتى وضع جبهته في جبهتي، وأنفه في  
 أنفي، ويده على كتفي، وداس عليه، وبعدها فتح فمه

- عيشك خلصها

زحمت يده في هدوء، وقلت له:

- أنا ماشي.

وطهر «أبو عوف» في انحناء الزقاق وفي يده زهر سياره، واقترب  
 وسمع طرقًا من الحديث، فقال دون أن ينظر إلي:

- أقصر الشرب يا «سُمعة»، خلاص الرجل ماشي من هنا.

وفرّق بين جسدي شبه المتلاصقين، وأحد «سُمعة» في يده، وراح يتضاحكان، أما أنا فقد تقدمت نحو البيت صامتاً مشيت وصوت «عم خليل» يرن في أذني وهو راقد على جنبه الأيمن والدباب يكسوه:  
- قادر على كل شيء.

بعد دقيقة واحدة واجهت «عبد الشكور». كان كاسف البال، شعته مقددتان، وعلى وجهه رهن، وُضِئ عينيّه وكأنه لا يريد أن يراي لكسي، وعلى القيص من المرات السابقة، اقتحمته بقوة، وقلت له في اشمزار

- يا خسارة الرجال!

تأرجح في مكانه متبرّماً، وقال في حدة:

- لا نسى الأدب.

وملا شبيه عيني فحجّلت من نفسي، وقلت كالمعتذر:

- لا تغضب مني، فحشني فيك كان كبيراً.

مسح وجهه بكفه، وفتح عينيّه فاتسعتا حتى طنت أنهما مستنلعاني، وصمت برهة ثم نطق:

- لست ضعيفاً، لكنني أخشي على أولادي.

وضعت قدمي على أول السلم فتواري نصف جسدي عنه، وقلت له قول مودع:

- أشكرك على كل شيء، كانت أياماً لا تُنسى.

وصعت إلى جانبه على الكتبة الكيس الذي يحوي قفطانه وجبته منه، وأعطيته ظهري، وصعدت على مهل، حتى وصلت إلى السطوح  
وبينا كنت أسير نحو باب غرفتي، سمعت صوت «سميرة» يقول:  
- حذله على السلامة.

التفت فوجدتها واقفة خلف حبل الغسيل الذي كانت عليه قطع ملط رأيتها على أحساد إخوانها. مسحت السطوح المجاورة بعيني في سرعة، فخطفتي القرص الأحمر لشمس تتأهب للرحيل، والذي كان يحط على كتفها اليمنى، ويتسرب إلى حدها الأسفل، فيمسحه لون الورد لذي تبيعه

لم يكر أحد في هذه اللحظة فوق بيته سوى سيدة تعطيها ظهرها، وتتحرك فوق بيت بعيد، وهي تمسّ في يدها شمر وحاً طويلاً، تهش به دحاحات متناثرات كي تدخل إلى حاضنها، وتنتظر نومها المبكر الطويل.  
لم تكن هذه السيدة متبهة لنا، ولا يمكنها أن تسمعنا. وبطلق أذان المقرب من مسجد «المواردي» ليغطي على أي كلام بيننا.

دارت «سميرة» برأسها في كل الزوايا ثم قالت:

- قد يفاجئنا أحد على أي سطح مجاور .. تعالَ نكمل كلامنا داخل غرفتك.

هربي ما فالتة، ونسج حرجي، ووجدت قدمي تهزولان نحو الباب. فتجّه ودخلت سريعاً، وتركته موارباً، والتفت إلى خلف فوجدتها واقفة تنظر حوفاً.

في حمة طير صارت معي وأعلقت الباب خلفها. فغصد عرق من  
جبهتي، وصعطت على نفسي لعنني أقتل بعض عباوفي، خاصة حين  
قالت:

- ابن الكلب يرافيني في الرابحة والخدية.

وكنت أعرف عمن تتكلم، فقلت لها:

- ما تفعلينه سيزيده سُحارًا.

صمتت قليلًا، وردت في اتجاه لم أتوقعه:

- هل تعاهدني أن تكون لي؟

- ضحككت وأجبتها:

- لا تسي أني أشترى طوال الوقت وأنت التي لا تقدرين على البيع  
في أي وقت.

بدا عليها أسى، وابتلعت ريقها، وقالت:

طالما حولتها إلى بيع وشراء، فعليك أن تتحمل غدر السوق.

وشعرت أني أقسو عليها، وأحملها ما لا طاقة لها به، فأنا من يجب أن  
يتحمل العرم كله عن طيب خاطر، وأنا من يجب أن تتوسم فيه هي القدره  
على حمايتها عاجز عن حاية نفسه، وأبدو أمامها في صموني وشرودي  
أو في كلامي الغارق في الحيرة والتردد مستسلمًا لسيأتي، ولا تظهر علي  
آية علامات تطمئنتها إلى أني سأنتصدي له «سعد سلطة» في يوم من  
الأيام.

ربما فهمت هذا حين قلت لها ذات مرة في شأن غريمي:

- اصبر على جوار السوء، يموت أو يرحل.

هنا أنا لا أملك إلا انتظار رحيله، وأني له أن يرخص، وحتى إن رحل عن  
«بل لعقارب» عيسر على أن يأخذ «سميرة» في يده أما الموت فوارد لشاب  
«رافع» على حافة الخطر منه. لكن الأعمار ليست بيدي ولا بيد «سميرة»،  
ولا أحد يعرف من سينتضي أجله أولًا.

ليس مطلوبًا منها أن تعلق أمانها على حال الغيب التي لا تملك فيها  
شيئًا، ولن تمنعها فلسفتي عن الإرادة الإنسانية الجسارة التي بوسعها أن  
يربرل الخيال

فلت لها وهي جالسة بين عينيَّ

- بوسعنا أن نفعل ما نريد.

لوت شفتيها متشككة في قولي، وقالتها في صراحة تامة:

- هم كثيرون وأنت وحدك.

ولدت بانكساري، لكسي مددت يدي إليها وأحدث كفيها الدافئتين،  
وقلت لها:

روحي فداؤك

محت يديها وقالت في حدية:

- أنت لك مستقل فلا تضيقه، ولك أهل يتظرونك فلا تضيعهم  
وهزي ما قالتها بهذا الإحكام، وتذكرت حديثها عما تعلمته من  
الشارع والأيام والليلي، وأدركت جيدًا أنها لا تطرد لواقع من رأسها  
لذا، فحياتها هنا وسط البيوت التي تعلن عن الرعة الدائمة في الامبيار،  
ودورانها على الكورنيش تبني الحمل لقاء قروش زهيدة علمها أن تظل

مستيقظة طيلة الوقت لأفعال الحياة معها ومع من حولها مهما كانت  
هذه الأفعال صغيرة أو تافهة

تقف مستسلمة لتصاريف الواقع وهو يحفر أحاديث في نفسها ويدق  
أوتاراً، ويقرر إقامته إلى أجل غير مسمى، وانتباهه الكامل حتى في  
اللحظات المشبوبة بالغرام

هكذا وجدتني عقلاً لا يام، وكنت أنا الذي يتيه بعقله على الناس،  
يحمل بأن يجد ذات الروح الخالصة ويعشقها

وقلت لنفسي ربي أسري هائلها الأحاد وعطر ورودها التي بيع  
وعقوبتها، وولنت أنها الفاء التي عندها ما ليس عندي، بصفي الآخر  
نكر كل هذا كان محاولة فاشلة لاستيعاب ما جرى، وإجابة السؤال الذي  
لا إجابة له: لماذا عشقتها؟

وحدث أنه من الأحدى ألا أسأل وألا أنتظر إجابات، ولا حتى  
أنتظر ما سيأتي، بل أعيش اللحظة الراهنة على أنها الأخيرة، وبعد  
الرحيل عن هنا أو الموت.

هكذا حسمت أمري، وقررت في هذه اللحظة ما سأفعله في قابل  
الأيام اقترت منها، وأطلقت في ملاحي طاقة هائلة من الامتنان  
والافتتان والرغبة المحمومة، وشجعت صوتي بوجع وشغف ولهفة،  
وزحمت إليها في هدوء، وأخذتها إلى صدري، وصغطت على جسدها  
اللين، ثم تركت شمتي تلتئمان جيدها وشحمتي أذنبها في حرارة وتبل  
ولما سمعت شهقاتها وأناها اللطيفة اعصرت شهيقاً في هم شديد  
وكانت يدي تمسك شعرها الناعم، فلما انزلت إلى عمودها المقر

ووصلت إلى عجيزتها فرت مني. ابتعدت وهي جالسة، ثم وقفت  
ترنخف قليلاً، وعدلت هدامها، وجرت نحو الباب وهي تقول:

تأخرت على أمي.

وقبل أن تخرج قلت لها:

عارمك بكرة على «سينما الشرق».

هرت رأسها موافقة ثم فتحت الباب، وخرجت سريعاً، وسحبته  
وراءها، وتركني ألتهم بقايا شهواني المبعثرة على السرير المتداعي،  
وأفغض عن روحي بعض عداها.

وترأيت على الحائط المروش بالظلام صورة «سعد سلطنة»  
فأخرجت له لساني، وبكل ما أوتيت من قوة بصقت عليه.

انتطرت أد يتوقف المطر، والتقطت كتاباً عن الفلسفة اليونانية أقتل  
به الوقت، لكن الكهرباء انقطعت فجأة، وعرقت عرفتني في ظلام  
شامل. ومع العتمة ارتفع صوت المطر، وقدرت أنه أخذ يبطل بشدة.  
فراء الخريز فوق دولابي، وتسارع تنابع القطرات على سريري.

وجاءني صوت من أحد البيوت المجاورة:

استرها يا رب.

وسمعت امرأة تقول، وكأنها تنظر من نافذة في عمق السماء:

سيقع البيت إذا استمر المطر.

وصرح طفل فراح أمه تهدهده، لكن بلا جدوى وصاع صوته في  
ساح الكلاب، الذي كان يدوي في اتجاه العيوم المثلثة بالمياه.

وملكني إحساس بأن السقف سيسقط فوق رأسي، فعزمت على  
أن أمط إلى الشارع، لأجلس على المقهى، وربما أجد «عبد الشكور»  
مستيقظاً أو أحداً من أولاده فأسامره.

ارتديت لباساً ثقيلاً لم يظله الليل، وفوقه معطفاً أسود من الجلد  
الرخيص، تقشر من ظهره وصدره، وبانت طبقة الرمامدية الداكنة.

في أسفل السلم، الذي غرق أعلاه بالماء، وجدت باب الطابق الثاني  
معلقاً، وسمعت شخصاً حاداً. وكان باب الطابق الأول معلقاً أيضاً،  
وعطيط «عبد الشكور» واضح لأدي، رغم العرقت خفيفة التي  
تصنعها زخات المطر فوق الورق والنقش والأحجار الصغيرة وأكياس  
البلاستيك الملقاة على الأرض.

استيقظت مفروغاً من حلم ليلة بدأت رائعة، كنت أستعيد فيه  
البهجة التي تبادلناها مع «سميرة» بعيد العروب. وصعنت يدي على  
وجهي فلامست بللاً عريضاً، سهبت ومشيت نحو قاسم الكهرباء فإد  
بالأرض مثلة أيضاً، ووشيش يطبق على العرفة من الخارج، يتحده  
تقاطر ماء يصنع تكات خفيفة في الجهات الأربع.

حين امتلأت العرفة بوراً رأيت قطرات متتابعة تساقط من السطح،  
وخيط ماء رقيقاً يجز فوق الدولاب المكسور. فتحت الباب فإذا بزخات  
المطر العمي تتوالى فوق الأسطح، وسمعت قرقرة دجاج استيقظ  
مزعزوعاً مثلي، وماء قط كاتت مكشحة تحت جذر عارية، واقتحمت  
أنفي روائح كريهة، رجحت أن يكون ماء السماء قد فقأ مواضع عفن في  
القبالة المكندسة في البيت المتهدم المهجور الذي يقع خلقي.

عدت مسرعاً لأجد الوسادة قد انزلت، وكذلك الجالس الأيسر من  
السري. وخفت أن يحول قطن المرتة الخفيفة إلى عجين، فساحتها إلى  
البقة اليابسة من الغرفة، وحلست على كرسي البلاستيك الذي يواحه  
طاولة صغيرة وضعت عليها كتي. وكنت فزعت حين حطت عيناوي  
على الكتب خوفاً من أن يكون الماء قد نال منها، لكنني وجلتها على  
حالتها قبل المطر.

لم يكن هناك يد من الخروج إلى الزقاق، الذي صار لجة، إلا من شريط ضيق تحت الحدار الأبيض، تحسسته بقدمي، ثم مضيت نحو شارع «بور سعيد». على الناصية وجدت «عم خليل» مسجى ببطانيته القديمة الغارقة، وأبينه يشرح الهواء.

كانت المقاهي مغلقة في تلك الساعة المتأخرة مشيت نحو باب مسجد «المواردي» فوجدته موصداً، وبعض مياه الأمطار تتجمع في المجرى المحفور أعلى جداره ثم تفيض قوة من قطوع ضيق في طرفة الأيسر، وتغر على الأرض وتجري في اتجاه الأرض الواطئة أمام المقاهي، وتحت عرسات أصحاب العاكهة التي كانت مغطاة بقطع كبيرة من الشمع، ولا أحد يقف إلى جانبيها.

كنت قد نسيت ساعة يدي تحت الوسادة، ولم أبعدها عن الليل، ولم أنظر فيها لأعرف ما تبقى من هذه الليلة العصبية.

أين أذهب؟ هل אחتي يكوبري «زهيم» أم محطة مترو السيدة؟ ورجرت الريح فأجأت عن تساؤلي، وسافنتني في طريق البحث عن مكان معلق ودافئ ويأسس، وكان نفق محطة المترو، الذي طالما قطعتة ذهاباً وإياباً في النهارات والأسيات ومطالع الليالي.

انعطفت يمينا إلى، كانت هوته مظلمة، وأولى درجات سلمه زلقة هبطت ثلاث درجات، فالتقت قدمي بالأسمنت المتشح الجبل، وهكذا حتى صرت في الأسفل المعتم.

مددت عيني في العمق، فرأيت بقعا صغيرة حمراء، تتوهج وتطفئ، وكس دخان السجائر على أنفي، لكي كتمت نفسي، وحفت أن أشهق

فيكشف أمري. لكن كل هذا صاع حين اقتحم أذني توجع أنفي وفحيح دكر، يصعط عليها، ويجبرها على ما لا تطيق.

صرخت فيه

- من ورا لا يا معلم «سعد».

لكنه غمغم وداس عليها وقال:

- من قدام تحبلي، وبحسبك علي واحدة يا بنت الزانية.

وتأكدت أنه «سعد سلطنة»، دلي صوته عليه، ورأيت قفاه، الذي أعرفه جيدا، حين توهج عود ثقاب في يد ولد يجلس ماله، ليشعل سيجارته، ثم لم يلبث أن انطفأ حين نهج فيه، مدفوعاً بصرخة «سعد»:

- أطفئ النار وإلا سأجي بك مكانها.

كان لا يريد لأي منها أن يرى مؤخرته العارية، التي لمحتها في اللحظة التي توهج فيها عود الثقاب، وبطاله قد انحسر عنها، وهو يجثو على ركبتيه، مستسلماً لسعار الشهوة العارمة، وماذا ذراعيه ليعمسك الست من كتفيها، ويجليها إليه.

صرخت فريسته من جليد:

- لا تضربني وتشد شعري .. حرام عليك.

- حرمت عليك عيشتك، أنا سأذيبك، وأشرب من دمك.

غمغمت وجأرت كأنها حيوان يتبع:

تعبانة قوي

صرب حدار النقب بده ورمع، وصرح فيها:

- هيمحصل غصب عنك.

كانت العتمة قد راققت أمام عيني، وأصحت أرى ما يجري أمامي، كأنه مصاحبة بين شحجين، أو مشهد مقرر في فيلم قديم، أبيض وأسود، يشاهده مجموعة من العجزة الصامتين. كان الأولاد ذوو الوجوه الضامرة واللامح الغائبة حلف الوسخ والعتمة، يتابعون ما يجري في حياد غريب، وهم ملتصقون كقطط جوعى يرجمها الصقيع. بعضهم يجلس القرفصاء، وبعضهم يترع على الأرض، وهناك من يميلون على جوبهم، وثلاثة منهم واقفون، أحدهم في الجانب الأيمن، الذي يصعب فيه «سعد» فعلته، وأثنان عند الجدار المقابل.

خفت أن يتبهوا لي، ويروى كما أراهم، شحًا مثلهم، فجلست مكاني القرفصاء، وواريت وجهي في كفي، وأرسلت عيني من بين أصابعي

كان «سعد» قد تمكن من البت، وتوالت صرخاتها، فكتم فمها بيده، وراح يطعنها بقوة. وسمعت ولذاً يجلس إلى جانبي يطلق فحيحاً حارفاً، ويده بين فخذه، وكان آخر يفعل مثله. وصرحت ست من الطرف الآخر في ولد:

- ابعدي يا «صلاح».

وسمعت لطمته على خلفها، فزعقت فيه:

- روح تشطر على المعلم «سعد» .. أحد منك «فاتن» ونايم معها قدامك.

وتقدم شبح من الولد والتحم به، وجرى الأولاد والبنات نحو المشاجرة، و«سعد» مشغول بتفريغ حرقته ولهفته، فوحدتها فرصة

سانحة كي أجري إلى الخارج فجريت، فإذا بالمطر قد توقف، وصفت النساء، وانطلق أذان العجر من مسجد «المواردي» عذناً بدنياً، فتقدمت حذرًا بين البرك الصغيرة والطين اللزج حتى وصلت إلى باب المسجد، فجلعت حذائي ودخلت.



طرقات مدوية حلتني من نوم عميق بعد هذه الليلة العصية، وكادت تلحج الباب نفسه. هرعت إليه فوجدت «حسوة» واقفاً وفي عينيه انزعاج شديد، وقبل أن أطلق كلمة واحدة، اندفع إلى الداخل. وأمسك بكتفي الموضوعة فوق الطاولة، ورفع معها ما استطاع حمله وهو يقول:

- خبيء كتبك، الشرطة تفتش كل الشقق المفروشة.

نظرت إليه بسخرية، وقلت:

- الشقق، لكن هذه مجرد غرفة تعيسة.

أشاح يده في وجهي، حتى كادت أصابعه تحرق عيني، وقال:

- يفتشون حتى الجحور التي يسكنها الغرباء.

- والسبب؟

- يبعثون عن إرهابيين.

توقف في منتصف الغرفة المبتلة، وسألني:

- ألدبك هنا ممنوعات؟

- ممنوعات!

- كتب، منشورات، ورق كتبه بنفسك فيه معارضة للحكومة؟

ثمخت في ضجري، وهزرت رأسي مستخفاً به:

- لا شأن لي بالأحزاب ولا الجماعات المتطرفة.

تهدد بارتياح.

- الحمد لله

ومع هذا جرى بالكتب إلى الخارج حتى وصل إلى كرتونة مثقلة ملقاة في الركن، وأزاحها بقدمه، فظهرت تحتها كومة قش ترنحت من مطر الليلة العاتية. نظر إليها وبأداني:

- تعال بسرعة.

دهبت إليه متاطناً وسألته في نهرم

- ماذا تريد؟

ارفع القش.

- لم؟

- لأخبري الكتب هنا، في هذا المكان اليابس.

- لكن هذه كتب في الفلسفة لا تعني الحكومة، ولن تقلقها.

- فلسفة أو بطنخ، الحكومة لا ترحم هذه الأيام.

ونظر ليّ معاولاً أن يستعلي عليّ، وقال:

لو كنت تقرأ الجرائد مثلي لعرفت أن أعصاب الحكومة متقلبة من الإرهاب الذي يضرب في كل مكان.

قهقهت ورددت في سخرية:

تقرأ أم تقص الصور؟

لم يعبأ بما قلت، وراح يرحل الكتب بعضها فوق بعض، ثم انصرفت إليّ قائلاً:

لا تضيع الوقت، هات بقية الكتب، وأي شيء مكتوب يدل على أنك تعيش هنا.

ورأيت أمشي متثاقلاً، فحري وتجاوزني بعد أن صرني بكنفه، ودخل الغرفة، ورفح مجموعة أخرى من الكتب والكراسات، وعاد إلى الركن، وهكذا حتى تجردت الطاولة من كل شيء.

نظرت إليه في صيق وقلت:

- نسيت شيئاً مهماً في الغرفة.

نظر إليّ بآتر عا ح و سأل:

- ما هو؟

صرت جبهتي بيدي، وقلت صاحكاً:

الأفلام.

لوى شفتيه وقال

- لا تأخذ الأمور باستخفاف .. أخذوا طلائعاً كثيرين معهم إلى القسم بعد أن وجدوا عندهم أشياء تافهة.

ثم بطويقة أكثر خشونة:

- إذا كنت تريد أن تروح في داهية أنت حر، لكن ما ذنبنا نحن أصحاب البيت، الذين أجرنا لك الغرفة.

ملأت عيني من ملاحه الماكرة، وقلت في غيظ:

لن يمرؤ أي شرطي أن يدخل غرفة لم يبق في عمرها سوى ساعات الليل

أدرك ما أقصده، لكنه سعى إلى التأكد:

- أتقصد السقف الذي ليله المطر؟

السقف والأرضية والخدران، وحتى العفش.

لا تخف، كثيراً ما حدث هذا وانتهت الأمور بسلام.

ودخل الغرفة مرة أخرى، أراح الدرفة المكسورة من الدولاب مهوت على الأرض، وقصمت قطعة من الأسمنت اللين، ونظر إلى الملابس وقال:

- ربما تكون قد نسيت كتباً في الدولاب.

ورفع مرتبة السرير التي كانت حافتها قد شرت من المطر حتى اكتمت، ونظر تحتها، فلم يجد شيئاً.

وبعد ما سحجني من يدي، وأخر جنني من العرفة، وأغلق بابها. وسمعنا صوت «عد الشكور» الأجنس يقول:

- لا يوجد أحد هنا يا سعادة البية.

ارتك «حسونة» واصفر وجهه، والتفت حوله ثم قال:

- تعال معي.

- إلى أين؟

- سندهب إلى مكان آخر حتى يعاين الضابط عرفتك ويصرف.

- أي مكان؟

- لا تجادل، ليس لدينا وقت.

وسحب يدي من جديد، حتى السور الخفيض للسطح، دار بصره في الجهات الأربع بسرعة خاطفة، ثم صعد وأمرني:

- اصعد، واقفز معي.

وقفت مكاني معانداً، فقال لي بصوت يختلط فيه التحذير بالاستعطاف:

- ربما يكون «سعد سلطنة» أبلغ عن إرهابي يسكن في غرفة فوق بيتنا، وجاءوا للقبض عليك.

لم يكن الاستخفاف قد زال عن نفسي بعد، فسألته:

- إن كان قد فعل فهل صدقوه؟

داس علي يدي بقسوة وأجاب:

- هو رجلهم، وإن لم يصدقوه سيجمالونه.

سقط قلبي في قديمي، لكن هذا لم يفقدني القدرة على تحريكها إلى الأمام بقوة، وإلى أعلى، فأصبحت مع «حسونة» فوق السور، وقرباً إلى سطح بيت الجيران، ثم هبطنا على السلم إلى الرقاق، وحرينا نحو الميدان الصغير، حيث حنفية المياه، والكلاب الضالة الحائطة، والنسوة اللاتي يملأن الصفائح والقذور، والبط الذي يلهو بين أر حل العابرين، ويتدفع في نهم نحو أكوام القمامة الراكدة في حبات المكان.

حين وصلنا إلى سور المترو اكتشفت أنني أرتدي لباس النوم، وأنتي نسيت نقودي القليلة تحت الطرف غير المتل من الوسادة، فانتقطعت

و السبل، حيث لم يكن يوسعي أن أذهب إلى الجامعة، أو أجلس على المهي، لاسيما أن «حسونة» تركني أجري إلى الأمام، وعاد هو يجري إلى الخلف، عائداً إلى البيت بعد أن تخلص مني في أزقة لا يعرفني فيها أحد.

انتظرت ساعتين أتحرّك على هيتي تلك تحت السور ذهاباً وإياباً، حتى وجدت مقهى صغيراً، في بيت قديم ينم تحت شجرة عجوز، عدت على استحياء، ثم توقفت، وسكن التردد نفسي، لكن النادل السيّط رأي، فدعاني بابتسامة عريضة:

تفضل.

اقتربت منه وقلت له:

أمر طارئ جعلني أخرج هكذا، ونقودي في جيب قميصي

واصل اتسامته

- كللك فلوس، ولا يحمك، اطلب ما تعوزده.

جلست وطلست كوتاً من الشاي وحجر شيشة، فجاءني بها على الفور رشفت قليلاً من الكوب، وسحبت نفساً كثيفاً من الدخان، فسمعت بشدة، وشمعت أن صدري يرتج ويكاد يسقط على الطاولة الصغيرة متأكدة الأطراف.

جاء النادل أمامي، ونظر إليّ بإعجاب، ولم يكن هذه المرة يتسّم، وقال:

- واضح إنك جديد في التدخين.

كتمت السعال بعد أن تخلصت من نقايا الدخان الحبيس في صدري، وهزّزت رأسي:

- فعلاً.

وحذت عينيه تمتلآن بالاستهانة وقال:

- بكرة تكبر -

غاضني كلامه، فقلت له:

- ما طلبته سأدفع ثمنه، ولا داعي للإهانة.

لم يرد، بل تقدم نحو الشيثة والجمرة في يده، وزاد على حجر المعسل ثلاث جهرات، وقال:

- الحساب مدفوع.

رفعت عيني إليه باستعراب، لكنه لم يدع وجهي معلقاً على دهشتي طويلاً، وقال بعد أن عادت إليه الابتسامة، لكنها كانت مفعمة بالاحتقار والتهديد هذه المرة:

المعلم «سعد سلطنة» يُصبح عليك، ويجبرك أن ما جرى قرصة وذن وعليك أن تتعظ.

(7)

عدت بعد ساعة أمشي على أصابع قدمي، لأجد رجال الشرطة قد رحلوا، و«عبد الشكور» يجلس مكانه بسعل، وتجحط عيناه، ويحلمق في الحدار المتأكل للبيت المواجه، ويرقب العثران التي تمرق من أمامه أحياناً

ما إن رأي حتى قال لي، وهو يضرب الهواء بأصابعه:

- راحوا

وأشار بيده إلى جواره فجلست صامتاً، وأنا أنظر إليه أطلب منه تفسيراً لما جرى. وضع يده على ركبتي، وداس عليها، وقال:

- أتحمّل من أجلك ما لا يطاق.

شعرت بالأسى والأسف، وقلت له بكل جدية:

- سأخذ كنتي وملابسي وأذهب من هنا لتتوقف متاعبك.

أدار وجهه إلى الناحية الأخرى، ثم عاد إليّ، وقال:

- لا، إذا كان على الولد «سعد» ووجه في يدي.

استغربت كلامه، ونظرت إليه وفي عيني سؤال، فأجابني:

- هو يحب ابنتي فيطبعي، وتلين خشونته بين يدي، وأنا ألومه لأكسب وقتاً، وستأبى ضربتي في اللحظة المناسبة

زاد استغرابي، وقلت له في عجب:

- تضريره؟

ضحك عن أسنان مثرمة، وقال:

- لا تستهتر بي .. يجعل الله سره في أضعف خلقه.

وحين وجد الشكوك تسكن ملاعبي، داس على أمانه وقال:

في ترحالي الطويل مر بي كثيرون مثل «سعد»، وكانت هابيتهم محتومة، قتلى ولا يعرف أحد من قتلهم، أو محوسين في زمارين باردة.

وقبل أن أقوم، حذبني من يدي وقال:

- أتعرف لم ذهب الشرطة من هنا؟

- لا أعرف.

- جاء «سعد» وهمس في أذن الضابط، فانصرف.

- ماذا قال له؟

حين حضرت الشرطة فهما أن «سعد» قد دس لك، هجرت «سميرة» إليه ونادته من على المقهى، وقالت له إيلك قريبنا، وإن أمك أرصعتها وقت أن كانت صغيرة، وهي في ريارة لبيتنا، وإنك لا تحمل لها - وهل صدقها؟

- أراد أن يصدقها فصدقها، وهو لا يتحيل أنه يسمع منها كذبًا.

صحكت وقلت:

- يا لها من بنت ذكية!

- ألم أقل لك إنني وصعت بطففتها لتكون كما أتمنى . كانت «سميرة» القديمة ذكية أيضًا

صمت درفة وعدت لأقول:

- لكن هذه الكذبة لن تطول.

على الأقل تكسنا وقتًا.

مسكت يده، ودست على أصابعه وقلت:

أسيت يا عم أن نهاية الوقت قد تم تحديدها، ولن تتعب يكذب جديد.

عم تتحدث؟

- بلوغ «سميرة» سن الثامنة عشرة.

## الفصل الخامس

( 1 )

لم أجد النفود التي كنت قد دسستها تحت الطرف الذي لم يطره المطر  
من وسادتي، ضربت عيني ويدي في كل مكان في الغرفة فلم أعثر على  
شيء. أيقنت أن «حسونة» سرقها قبل أن يطر دني مدعوًّا إلى الأرفة  
الغارقة في الطين والنؤس والأحلام الميتة

ارتديت ملابسني، وهبطت غاصبًا إلى «عبد الشكور» وواجهته بها  
جرى، فرد في برود، بها لم أتوقعه:

- من أين لك بها سرقة؟

- فلومني.

- لا، هي الفلوس التي خبأتها عني.

- أعطيتك الكثير.

وأخذت أيضًا الكثير، وكان اتفاقنا أن تعطيني كل ما في جيبك  
في نهاية اليوم.

ونظر إلى أسفل الكتبة، وقال:

- لا تقلق، عدة الشغل موجودة وتنتظرك.

وقفت والغضب يشعل في جوفي نازًا، وصرخت فيه:

- لن أفعل هذا مرة أخرى.

قابل غضبي بضحكة مكتومة، وسألني:

- كيف ستبقى هنا إلى جانب دراستك؟

- سأعمل.

- وهذا عمل.

- لا، هذا تسول.

- كل واحد يلتقط رزقه بما يعرف.

- وأنا أعرف طرقاً أخرى لا أكسب قوتي.

سعل وتمحط وبصق في القوطة الملقاة إلى حواره، وقال في هدوء:

- ربنا يوفقك.

سرت خطوات نحو الخارج، ونظرت إلى عمق الرقاق، فوجدت طعين يشوطان غلبة سلمون فارعة، ويجريان خلفها، ثم يتصارعان على من يموّزها بقدمه، ويمررها من بين رجلٍ الآخر.

عدلت إليه بوجهي، وقلت له:

ما لك عندي هو أن أدفع لك أول كل شهر إيجار الغرفة.

رمي عليّ نظرة شاملة وقال:

- أنا أعترك أبي، وكنت أتمنى أن تفعل ما يفعل أولادي.

زاد غضبي ونفحت في وجهه، وقلت:

- فارق كبير بيني وبينهم، أنا هنا لأتعلم، لا لأتسول.

دارقه حلمه فطوح يده في الهواء كأنه يلطمني، وقال بعينه الكثير،  
شعنا ونطقنا:

روح، وحين تبدأ نتكلم.

رحت كي تعمل يدي ما دار رأسي وأنا جالس على المقهى الصغير. شعرت لحظتها بالعربة المهينة، وانهاالت عني الدكري،  
أحذتني الحكايات التي سمعتها من أثناء قربتي حين كانوا يجولون على  
«الناهرة» للعمل في المعبر، يقضون على الثموس والأزاميل يهدمون  
بها الخدر القديمة، ويرفعون الطوب والرمل، وترط إلى الأدوار العليا،  
و يحمون قصعات الأسمنت الطري بعد أن يملأها الكراك، ويصعدون  
السقالات الخشبية، وكان بعضهم يكشف عن كتفه ويربي الحفرة التي  
صنعها القروانة، واللحم الأحمر الذي يظهر في قعرها.

كان هؤلاء العائدون من «القاهرة» يجلسون على المصطب في الليالي  
القمريّة يرمون على أسباعا مكبداتهم هناك بين ساية تقع وأخرى تقوم.  
كانوا يحكون بافتخار بعد أن يكون عرفهم قد جف، وجيوبهم قد استقر  
بها ما يجودون به على أهلهم الذين ينتظروهم متلهقين شهوياً

و كنت أنا طفلاً صغيراً أجلس على الأرض حولهم، أو يقف على  
حواف جمعهم السهران، يصمت بأعان، ويطلق لحيله العنان ليرسم  
هذه الشوارع التي يتحدثون عنها، وتلك البنايات والوجوه، وأسماء  
المهندسين والمقاولين وخصالهم.

و كانت أسماء بعض أصحاب الأعمال، وأسماء الشوارع لا تزال  
محفورة في رأسي، فقطعت شارع «بور سعيد» هرولة حتى وصلت إلى



ميدان «السيدة زينب» وهناك سألت عن المقاول «سالم رمضان» فقال لي رجل يجلس على المقهى الكائن في أول شارع «أحمد بن طولون»:  
- امش في طريقك، لا تذهب يميناً ولا شمساً، مستجده هناك حالاً تحت آخر عمائر الجنديدة.

توغلت في عمق الشارع بين بنايات جديدة وأخرى تعود إلى قرون غابرة، حتى وجدت نفسي أمام رجال يكدهون تحت ظل بناية شاهقة، بعضهم يحملون أكياس رمل ثقيلة، وآخرون يحملون الطوب الآخر بعد أن يرصوه فوق حبل متين، ويرفعوه على ظهورهم التي يحتملونها وهم يعبرون إلى السلام الرخامية، وآخرون يحملون شكاكر الأسمنت وأقفيتهم مُعْبَرَةً.

ورأيت إلى جانهم رجلاً سميناً يرتدي بذلة أبيض ملاء راحة عن، ويجلس فوق مقعد من البلاستيك المقوى، وأمامه شيشة ضخمة، كأنها أعدت خصيصاً له، وطاولة صغيرة من المعدن عليها كوب من عصير الليمون. كان باسطاً كفه أمامه، ليلمع في إصبعه خاتم غليظ من الذهب، وفي إصبع آخر خاتم من العقيق، وفي المعصم ساعة لم أر مثلاً من قبل.

كانت الساعة وخاتم الذهب يلعبان بين لمعتين، صلعته العريضة وحذائه الأسود، لكن كل شيء كان ينظم حين ينفث الدخان الكثيف، ويصنع حول رأسه سحابة سوداء رقيقة.

سألت أحد العمال المهمكين في تعبئة كيس رمل عما إذا كانت هناك فرصة شغل، فأشار إلى الرجل وقال:  
- روح للحاج «سالم».

وقفت أمامه دون أن يشعر بي، كانت عيناه ذاهبتين إلى عجيذة بر جرج لا امرأة تمشي على مهل نحو بائنة حضار تجلس خلف مشنات مرصاة عند الجدار المقابل، وحين جلست المرأة، عاد يبصره إلى الأمام بلمظ، فوجدني واقفاً أنطلع إليه. حملني في وجهي، وقال:

- حير؟

- عاوز شغل.

أي شغل؟

- أنا طالب في الجامعة وأريد أن أعمل لأدبر مصروفاتي.

- فيك البركة يا بني، الشغل ليس عيماً، واليد البطالة نجسة، ربما يُكثر من أمثالك، روح للمعلم «فراج» وقل له إن أنا من أرسلك.

وفضبت إلى من أرسلني إليه، فمسحني بعينه وقال:

- هل اشتغلت في المعيار من قبل؟

- لا.

هز رأسه، ومد يده إلى قبضي، وقال:

- أملكك ليس قديم؟

- لا.

استدار، ونظر هناك حيث كومة من الخشب، وأكياس من المشمع الطيف، وأشياء أخرى مكدمة بألوان صفراء وبسبة وحصراء داكنة رتيبة، وغمس إصبعه في الهواء ناحيتها وقال:  
- هات لك أفروول، والبسه.

لما وصلت إلى هناك عرفت أنها ملاس جيش قديمة يلبسها العربي  
وكنت قد رأيت أحد الذين يرفعون الرمل يرتدي مثلها التقط  
أحدها وعدت إليه، فأشار إلى مكان محصور بين جدار ولوح عرص.  
من الخشب الخشبي، وقال:

اخلع ملاسك هناك، والس الأفول، وإذا كانت معك فلوس  
يمكنك أن تركها معي.

ضحكت وقلت له:

- أنا على فيض الكريم.

رد عليّ في غير اعتناء:

- كلنا على فيضه ورحمته.

وكنت قد أخبرته بأنني طالب في الجامعة، ربما يكلفني بعمل يليق بما  
أنا فيه، فوجدته يقول لي:

- الشغل هنا عاوز جسم متين.

نظرت حولي حيث المنهمكون في أعمالهم الصعبة وعدت إليه وقلت  
- أهرق هذا.

أشار بيديه، واحدة إلى كومة الرمل والأخرى إلى جدر الطوب  
المرصوفة، وقال:

- احتر ما شئت، حساب الرمل بالتر وحساب الطوب بالأنف  
طوبة.

وكانت لدي فكرة عن هذا مما سمعته من شباب بلدنا الذين حلوا  
هنا قبل سنوات، فأومأت له موافقاً، ونادى:

- يا «خليل» استلم

احترت رفع الرمل إلى الدور الرابع، وأقلت على العمل بصدر  
حيث، وبعد العشاء قبضت أجري، وغسلت ساقي ودرعني ووجهي  
شعري بحرطوم مياه، ومصيت سعيداً، وأنا أردد في تنل.

«سفر تجد عوضاً عن تعاققه . . وانصب من لديد العيش في  
الصب»

مدور عليها رجل قصير في يده مشنة ويمد إلى الخالسين ما يأكلونه،  
مررت وجلست في آخر الصف الأيمن، أنتظر نفحتي.

كنت جانتاً ومجهذاً، لكن روحي كانت شغى من رزق حلال تلعت  
في حق، ومجاورتي هؤلاء الصالحين، أو من اعتبرهم هكذا. ابتسموا  
في وجهي، وأفسحوا لي مكاناً بينهم. كانت حضرتهم قد انتهت فأكلوا  
وانصرفوا، وأكلت معهم وانصرفت خرجت معهم دون أن أسأل  
أحدًا منهم عن شيء هم أيضاً لم يسألوني واحد فقط استوقفي عند  
الباب، وقال

لا تقطع عنا.

لكنني انقطعت عنهم فور أن تركني، فبعيني ذهبت إلى حجر الرحل  
الربث العجوز، الذي كان يجلس تحت الجدار بين النور والظلام، يرقب  
من حوله كشعلب، ويعد النقود التي حصلها.

التصقت بالجدار حتى لا يراي، وعرفت أن معه الكثير. تحيلت أنني  
اقترت منه في حذر، ثم أبغته، وأحطت ما معه، وأدوب في الرحام  
وتحيلت أنني أقف هنا مثله ساعات فأكسب ما كسب ويزيد.

وضعت يدي على جبيني فشعرت بالخزي من نفسي، وقلت لها:

«هل استهواك كسب الرزق عما لا يفيد».

واستعدت الساعات التي كنت أصعد فيها درج السلم الأسمتي  
حاملًا على كتفي كيس الرمل، وشعرت بنعطة شديدة، وكلني كان  
حسبي يتوجع من فرط التعب، كنت أزداد مساعدة.

حين وصلت قدماي إلى الميدان حطفتي «مسجد السيلة زيب» بقبة  
البسيطة، ومدنته التي ترنو إلى الفضاء الموشى بالجوم سرى صوب  
طلي بمدبح دي حلال وحشوع، فوجدت نفسي أقرب صدري  
منشرح، ولساني يلهج بتسايع، وفي عيني تفرق دمع، تشطت له لمبات  
الشارع، وتبعثرت أجساد البشر.

على الباب كان يتزاحم المتسولون بأسألهم، بعضهم في هشة  
دراويش، يعلقون في أعناقهم عقوداً من الخرز الملون، وبعضهم يرتدي  
ملابس عادية متسخة. نظرت طويلاً إلى وجوههم الضامرة، وأبلىهم  
المدودة، وسمعت أنستهم تكرر أدعية متشابهة للذاحلين والخارجين  
والعابرين في الشارع. كانوا يتحركون في كل الاتجاهات، فيصدون  
الساب بأجسادهم التي تتهاوش بلا رحمة. وكان رجلاً طويل القامة  
يشههم كذباب، فيبتعدون متناثرين على الرصيف، يلاحقون المارة.

خلعت عليّ، ودخلت، وكانت المرة الأولى التي أفعل فيها هذا، رغم  
سروري دهاً وإيائاً من أمام المسجد، الذي يأتيه الناس من كل مكان.  
ملأت عيني من المساحات الواسعة التي تصنعها السجاجيد الخضراء  
المفروشة بين أعمدة عريضة. توقفت أمام حلقات موزعة في أرجاء  
المكان. دوائر ومستطيلات من البشر. كانوا يريدون، كل مجموعة منهم  
تتحلق حول شيخها وقفت مختاراً أيها أخير وأجلس وحدت واحدة

وها أنا أنزل على الدرج، بينما ينزل قلبي في قلبي، وأتمنى لو اشتق الحدار  
العالي الجديد وابتلعني.

في المرات السابقة كان هبوطي يحدث فرقعات متتابعة، من اصطكاك  
شبهب الجلد القديم الذي وجدته إلى جانب كومة الأفرولات  
بالدرجات الأسمنتية التي لم تكس بعد بالرغام.

هذه المرة الصقت الشبشب بباطن قدمي، ومشيت على حذر كلص  
يحمل ما سرقه ويمضي، وللمت الكيس حتى لا يحدث خشخشة حين  
يحتك بالحدار، وأدريت وجهي إلى الناحية الأخرى، حتى ابتعدت عن  
مرسى بصره، ثم أطلقت سافقي تعرقان كيفما شاءتا إلى أن وصلت  
إلى الطابق الأرضي، وحررت إلى المنطقة المحصورة بين الجدار ولوح  
الخشب العريض، فخلعت ملابس الشغل وليست ملابس البطالة،  
وجريت إلى الشارع، ولم أنظر خلفي، حتى وصلت إلى «ميدان السيدة  
زينب»، فتنهدت بارتياح.

وحين عدت وجدت «عبد الشكور» يشير إلى الصندوق ويقول.

- خيطا وعسلنا الجبة والقطان، ولبعد كل شيء كما كان

انتسمت في فتور وأنا أسأل نفسي: «ماذا لو رأي أحد من مريتي وأنا  
أشحد في الحافلات؟»، وارتعد جسدي، ووجدت نفسي أصرخ في  
«عبد الشكور»:

- اتس هذا الموضوع.

- لكن ..

قاطعته وقد ضمنت يدي، وضربت الهواء بقبضتي غاضبا:

- هذا مستحيل .. مستحيل، ولو على جثتي.

#### (4)

وقعت أمام القبة الحاسية الهائلة لـ «جامعة القاهرة» حائرا،  
وتراحمت الأسئلة في رأسي، الذي صار أصيق من الرقاق الذي أقطع  
فيه - هل حقًا سأستطيع أن أكمل طريقي في هذه المدينة التي لا تريد  
أن ترحتني؟ أم سأجد نفسي ذات يوم على رصيف محطة «الجيزة» أو  
«رمسيس» أنتظر القطار، الذي سيعيدني إلى بلدي كما جاء بي، ولا شيء  
في يدي سوى الوهم؟

دخلت من الباب، وملأت عيني من مبنى «كلية الآداب» تارك  
لشمس العصر التي تحط على جدرانه المتروحة بين الأصفر والبني  
فرصة للتسلل إلى نفسي شعرت أن الشمس تقبل هذا المبنى الذي طوى  
جناحيه العملاقين على عظامه مرواه، ثم تأتي إلي لتأسري.

كيف لي أن أترك هذا المكان الذي أدرك أن حياتي لا قيمة لها ندوه؟  
كنت قد تعلقت به قبل أن أراه، وطالما تحملت للذين قرأت لهم ولم  
أرهم، وهم يجلسون هنا في المكاتب وقاعات الدرس، ويمشون في  
الردهات، ويقفون في المنتصف، غامقا في هذه الدائرة التي توزع الأقدام  
إلى الطرقات والطواق والسلام المؤدية إلى مختلف الأقسام، لينصتوا إلى  
تلاميذهم الذين لا يكفون عن طرح الأسئلة، ولا ينعكسون حتى يبالوا  
الإحادات التي تملأ الرؤوس. وكيف لي أن أستغني عن المكتبة العملاقة  
العامرة بنفائس العلوم والآداب؟

لا.. لا، هذا غير ممكن، ولا يجب أن يرد على خاطري. أجمع هنا وأتشرّد. يصمر جسمي ويصير قشة غارقة في تراب الشوارع، ولا أعود حالي الوفاض، منكسرًا، ميتًا، فما قيمة حياتي إن مات هدي؟

أفضل أن أموت هنا، وأدفن تحت أي جدار، ولا أعطي هذا المكان طهري وأنا حي أررق، حتى لو كان الرق شحيحًا، كسرة يابسه وجرة ماء.

دخلت إلى المبنى، وقيل أن أصدق المسلم العريس، لمت انساها طالب يقف أمام لوحة الإعلانات، يقرأ ووجهه معلق في الفراغ. ويصرب كفا بكف، ويمصمص شفتيه، وتكاد عيناه تدمعان. اقتربت لأعرف، وعرفت.

كان نعي الأستاذ الذي حدثنا عن فلسفة التحايل على الرزق، وإشارة إلى أن العزاء سيكون الليلة في مسجد «الحامدية الشاذلية» - «حي المهندسين».

أما أنا فدمعت طويلاً. انهر على حدي ماء حارٌ بقدر حزبي ولوعتي كنت قد تعلقت فعلاً بهذا الأستاذ، منذ أن حدثني عما أسمعه وأشاهده وأكايده باعتباره الفيلسوف، ولا شيء غيره، فهي في رأسه وعلى لسانه كانت تمشي أمامي في الأرقّة، وتسكن البيوت الخفيفة، الحضور التي تأوي أمثالي، وتريد أن تنهار، كما أنها تجلس على المقاهي، وتلتهم الأطعمة الرخيصة، وتعبر الجسور حدرة، وتصرح حتى يسمع الناس أينتها.

حين شرح لنا «فلسفة التحايل على الرزق» هتعت من أعماقي في سميت.. هو.. هي وكنت أقصد هو الأستاذ، وهي المسألة التي يجب أن نشعلي في قابل الأيام.

رحل هو، وبقيت هي، ولا استغناء عنها.

في المساء ارتديت أكثر ملابس قمامة، وذهبت إلى العزاء، قلبي مطبور، وتحت المقلتين دمع حبيس، وقدمائي نقطعان الخطوات على مهل، كأي أنا الذي أذهب إلى كهي.

كنت حزينًا كما ينبغي للحزن أن يكون، ولم يعرف كل الذين مددت إليهم يدي، التي كانت الرمال لا تزال عالقة تحت أطرافها، لماذا أنا متأثر هذه الدرجة؟ ولماذا لا تريد يدي أن تعادر أيديهم وأنا أمشي في مواجهتهم مكسورًا؟

نعم لم أقل لأي منهم شيئًا، مات لساني في حلقى، لكنني حجزت آلاف الكلمات حلف غربي ولوعتي، وآمالي الدفينة.

كنت كلما جلست أمامه في قاعة الدرس، وأنصت إليه وهو يتكلم أحد لذي رعية غامرة في أن أجري إليه، وأقل جبينه وبدبه، فقد كان يعرف من نثر الحياة العميقة، ليصع غير فسفته هو، وكنت أسبح فيه، وتقمري المباءة عامًا وطالما شردت وهو يشرح لأحلب إلى قاعات الدرس، أمثلة من هناك في الصعيد الحواري، وأخرى من قاع المدينة، لأنثرها هنا على رؤوس رملاء، يعتقد بعضهم أن الفلسفة لا تكون إلا كلامًا معقدًا أو مجردًا مستعلقًا على الأفهام. وحين يرد على خاطري الذين أعاني منهم في القرية، أضحك وأقول:

- نيات هؤلاء الجهلاء إلى هنا، ليروا كيف أنني انحزت إلى من يمشي في الشوارع وعلى الجسور.

وهذا ما أقوله هناك لكلهم، لنضحالة ما في رءوسهم، لا يفهمون، ويتوهمون أنني أكلهم بحروف من عالم آخر.

هذا الأستاذ محي فرصة كي أنست لهم أن الفلسفة نافعة للناس في الحقوق والمصانع والمشاغل والورث والأسواق وعلى المقاهي وفي المكتاتب والدواوين هي نافعة بالطبع حتى في أشد حالاتها تحريداً وعمقاً، لكنهم لم يفهموا هذا، ولن يفهموا، لأنهم غير منشغلين بما أقول، إنما بي أنا. يريدون أن يقولوا لي دون أن ينطقوا بهذا صراحة - أنت لا شيء.

وقد يلونون الكراهية فيقولون:

- ما تدرسه ليس له جدوى.

لكنني لا أفرق بين نفسي وما أدرس. أنا موجود، وإن ذهبت عني ذهبت.

كنت أتمنى أحياناً لو جاء صديقي المهندس إلى «القاهرة» وأخذته من يده، ليسمع حديث الأستاذ الذي رحل، ويرى أن ما أنا فيه سيمكث في الأرض، لكن القدر لم يمهله ليراه هو، ولم يمسي أنا هذه الفرصة التي كنت أتمناها.

جلست فوق أحر مقعد في الركن مكبناً كعصفور في العراء يواحه هائلاً بارداً عاصفاً. وتحت في نفسي فترة طالت، ثم رفعت رأسي، وجلت

بصري في وجوه الجالسين والداخلين والخارجين، فلماذا بعضهم من عجلة القوم.

فرحت لأن أستاذ فلسفة رحل، يأتي كل هؤلاء ليؤدوا واجب العراء في رحيله، وقلت ربما لأنه جعل التفكير بسيطاً كأرقام الحساب الأولية، والخروف الأعجبية، وتجرح الماء البارد العذب في لفح المجبر، ومد الأكف إلى المدافع في صقيع الشتاء.

ها أنا بوسعي الذي أريد أن أسير على دربه أن أحد عيون كل هؤلاء من رءوسهم لتحط عليّ، واحد أفهامهم لتتبعني

وأمرحت شعيتاي بابتسامه عديدة حطتها من بشر أحزاني العميقة فجأة فسد كل شيء، فقد سمعت رجلاً، يجلس بجواري ليقول لصاحبه، لولا أن أحاء مسئول كبير في السلك رأيت كثيراً من هؤلاء المعربين

هنا

ورد عليه الآخر:

- وهل نسيت من تكون زوجته، ومن هم أهلها؟

فرحت من فاعة العراء كاسف النال، ألمي ألمان، واحد لأني فقدت أعز أستاذي، والثاني لأن هؤلاء الدين رأيتهم هنا لم يأتوا، احتراماً للفلسفة، إنما تقرراً من أصحاب المناصب

عبرت نصف شارع «حريرة العرب»، ووقفت في المساحة الضخمة التي تفصل بين هجري الشارع، الرائج والعدي، وبطرت نحو مدخل القاعة، حيث الرجل لكار الدين يقفون في صف كأنه نبيان مرصوص، بمدون أيديهم إلى أيدي الذين يتقاطرون على العراء، ويصنون إلى شعاع

تقول بصوت خفيض. «البقاء لله».. «ربما يجعلها آخر الأحرار»  
«البركة فيكم».

ترك عيسى الداخلين، وتابعت الفارحين. بعضهم كان يمسح  
صامتاً إلى سيارته، وبعضهم كان يقف ليدس يده في جيبه، وبعض  
شحاذاً يقف في ظلام الشجر والنخل القصير، ثم يقض عن  
يقصده سريعاً، فأراه حين يمد يده في النور.

لم يكن هذا الشحاذ ثياب، ولا معطوب الجسم، بل كان طبيباً  
سليماً. وأخذت خطوات حاسية حتى أرى وجهه وهو يتلقى الصدقة.  
فاستطعت أن أراه في الدهاب والإياب.

حين يكون في طريقه إلى من سيطلب منه يكتسى وجهه بمسكة  
عجبة، تنكسر عيانه، ويشحب وجهه، وتقص ملامحه، وتتم شفتاه  
بدعاء لا أسمعه، وتتباطأ ساقاه، لكنه حين يحصل عليها ويعطي ظهره  
تبدل أحواله. لا تبدل بل تعود إلى أصلها

دار في رأسي ما شعلني به، ورحت أمشي على مهل في مستطيل لا  
يريد طوله على عشرة أمتار، دون أن أبعد عيني عنه، وأنا في مواجهته.  
فلأن أعطيته ظهري أدركت عنقي حتى أراه.

لم أنسح المساحة التي رسمتها خطواتي الوثيلة حتى خرج آخر  
المعبرين، ومعه انصرف الشحاذ، واضعاً يده على جيبه. انعطفت يساراً،  
فعمره الظلام. ثم بان في نور شحيج قبل أن يصل إلى شارع «جامعه  
الدول العربية».

أطلقت ساقني للطريق حتى لحقت به، كنت أجري على جزعي من  
مواه جيبى والحوح الذي أخذ يشب أطافره في بطني. أمسكت كتفه  
موقف فأنحأ عيني على اتساعها، وداست يده أكثر على جيبه، وقال:

فيه حاجة يا أستاذ؟

انقسمت في مكر، وحملت فيه طويلاً، وأجبت:

- فيه حاجات

- حاجات؟!

- أنا أراقك من ساعات وأنت تتسول.

- ما هذا الكلام الفارغ؟!

وضعت يدي فوق يده الموضوعة على جيبه، ودمست على كتفه باليد  
الأخرى، وقلت:

- ألا تعرف أن القانون يُجرّم التسول؟

صمت برهة ثم نظر إليّ بإعجاب وقال

ماذا تريد؟

لا تأت إلى هذا المكان مرة أخرى.

نفخ، ونزع كتفه مني، وحاول إبعاد يدي التي تقبض على كتفه،  
وقال:

- ما صفتك حتى تسألني وتحاسبني؟

استدعيت كل قدرتي على الجدية وأجبت:

- أمين شرطة.

امتثلت عيناه بالقزع، لكن لم يلبث أن تمالك وقال:

- سنوات وأنا هنا، ولم أر شرطياً ولا يجزون

تصححت واستدعيت نقابا الحديدية المحزونة في نفسي لهذه الليلة ولب  
له:

- جاءتنا شكاوى من البهوات الذين تضايقهم.

بدأ الشحاذ يقتنع بما أقول، فكثير من الخارجين من قاعة العزاء كان  
يبدون نر مهم منه، ويمشون بعيداً عنه، وبعضهم كان يشبه كأنه يعوضه  
مثل تلك التي تحوم فوق العشب الأخضر في منتصف الشارع، وتدور  
حول هالات النور الذابلة التي تصنعها لمبات الشارع.

قلفتني بسؤال لم أتوقعه:

- من الذي اشتكى؟

ضحكت وأجبت مستهزئاً به:

- نتحدث وكأنك تعرف أسماهم جميعاً.

- فعلاً، أعرف كل الكار الذين يأتون لأداء واجب العزاء

ضحكت وقلت:

- كم «حسوبة» في هذه المدينة؟

لم يهمهم ما أقصده، لكن الطمأنينة كانت قد أحدث نزوحاً إلى وجهه  
بعد أن كانت قد فارقته، ونظمت أن يتجرأ عليّ، فباضته:

طُلب مني أن أقبض عليك، ولم أشأ أن أفعل ذلك أثناء العزاء  
حيث لا أثير مشاكل أمام ناس محترمين، والآن عليك أن تأتي معي إلى  
قسم الشرطة.

عاد الذعر إلى ملاحقه، ومد يده في جيبيه يسيراً عيابه ذاهبتان لتحققا في  
هبة، وقال:

- حد ما تشاء واتركني إلى حال سبيلي.

أدركت أن زمام الأمر قد عاد إلى يدي، فصعقت عليه  
أترشيني؟

ارتعشت يدها وشفتاه، وقال بحروف متهاوجة:

- لا .. لا، أبداً، والله .. والله، أنا لا أقصد .. أرجوك افهمني.

هزرت رأسي في كبرياء، وشمخت بأنفي، وقلت له:

- فهمتك، عليك أن تفهم أنت أنه غير مسموح لك بالذهاب إلى  
هذا المكان مرة أخرى

تمتم بكلمات لم أفهمها، وضغطت عليه بعينين حراوين:

- هل سمعت ما قلته؟

هز رأسه وقال:

- سمعت.

فأشرت إلى غير الشارع العريض، وقلت له:

- اذهب ولا تترني وجهك، سآتي كل ليلة إلى مسجد «الحامدية  
الشاذلية» فإن وجدتك سأخذك إلى الحبس، ولن أرافق بحالك.



أوماً موافقاً، ثم غاب في الليل والزحام.  
بعد ساعة واحدة كنت قد أعطيت «عبد الشكور» كل ما أخذته من  
الشحاذ، وأنا أقول له في ثقة متناهية:  
- ما لك عندي.

(5)

وحدثني أعود إلى منتصف الطريق، ليست البداية المعمة بالأمل،  
وليست اللحظة الآنية التي توهمت فيها أنني قد برئت من كل الأمراض  
التي أصابني بها الرجل العجوز الذي يتأرجح على أزيز «كسة» بين  
الحياة والموت، ولا يمتلك شيئاً سوى الذكريات الغارية.

ليس للجائع أن يختار، لهذا عدت في الليلة التالية إلى مسجد «الحامدية  
الشاذلية» لكن مهمة جديدة، إنها المهمة التي يقوم بها «حسونة» هناك  
أمام مسجد «عمر مكرم»

عدت حتى أبقى هنا إلى جانب أحلامي.

لكنني في الليلة الأولى لم أحرز على مد يدي إلى أحد، وبقيت أرتو إلى  
الباس من بعيد، وأما مصلوب بين الطل والنور، أهدى البعوض الخانع  
مثل ع و جهي وكفني، وأصابني مشلودة إلى بطني تواسمها وتقويها،  
وعيون الخارجين من قاعة العزاء لا ترى مثلي.

كانوا يمر ولون نحو سياراتهم الفارهة، وينفشون في وجهي دحان  
صوف شتى من السجائر والسيجار، ويعييون في الشارع بعنة ويسرة،  
وأنا أتابعهم حتى يغيبوا، ثم أعود لأرتو إلى الواقفين من جديد، دون أن  
أتقدم خطوة نحو رزقي.

شعرت في هذه الليلة بما يشعر به طائر جائع حبيس، يرى الحب  
أمامه أكواماً لكنه عاجز عن الذهاب إليه.

كنت حبيس وجعي ونجلي وانسحاقى، أقف على حافة جرف هـ  
وأنظر إلى هاوية أنا لا محالة ساقط فيها، لكن تسكني أو هام بأن يوسعني.  
أن أنجو من مصيري المحتوم.

(6)

فيل انتصاف أول ليلة قصيتها أمام مسجد «الحامدية الشاذلية»  
عدت إلى «تل العقارب» أجر ساقين متعبتين في محطة «أبو الريش»  
وقفت المحاولة في اتجاه فوهة النفق المظلم حيث رأيت «سعد سُلطة»  
سرف بعض طغيانه، وهو يشهق من توحش الرعة

أعطيت النعق ظهري وأنا لا أعرف كيف أصرف هذا السر الذي  
جثم على نفسي، وأنساءل عما إذا كان سيصدقني كل من يسمعون هذا  
الخبر القاحش أم لا؟

ويسا أنا غارق في سؤالي ولا أرى أممي إلا بصيصاً يسمح لي بأن  
أسلك طريقي في أمان اصطدم كتفي بلحم قاس. كان جسم «سعد»  
رفعت رأسي هو جدته أمامي يتسم. كانت هي المرة الأولى التي أعرف  
فيها أنه قادر على معاداة التجهم. لم تكن اتسامة صفراء داكنة مثل تلك  
الرسومة دوماً في عيانه، لكنها كانت كذلك التي يفعلها الطييون.

تيقنت مما أرى حين يادرفي قائلاً:

- والله العظيم أنا رجل طيب، لكن الناس لا يفهمونني.

ساورتني شكوك فيما أسمع، لكنها تبددت حين واصل:

- الأخ في الرضاعة أخ. وأنت فيك البركة يا أستاذ.

وشدني من يدي، وهو يقسم بصوت سمعه كل العابرين والجالسين  
على المفاهي والمطاعم:

- والله لازم نأكل لقمة مع بعض.

ورغم جوعي الشديد تمعت، وسجبت يدي من قبضته، لكنه  
أمسك كتفي، وقال من أعماقه:

- ليكن عيشًا وملحًا بيتنا.

تراحت إرادتي أصام إصراره، وإلحاح عصاره بطني على أن أعطيه  
شيئًا تعاركة بدلًا من حربها الضروس ضد جدار معدني.

وكانت رائحة الطعام المنسحق من حاتي «أم هاشم» ومسط «حباب  
السيدة» تختلط في طريقها إلى أنفي، فتحركت قدماي معه قليلًا، لكن مارأيت  
في النطق أنني إلى رأسي فجأة، وجعلني أتقزز، إلا أنه لم يدعني أتقيًا داخلي،  
أو أتردد، إنما حسم كل شيء، حين سادى من الطرف الآخر على نادل  
المسط:

- طليي لحمة رأس، وطاحني عكاوي، وشربة كوارع، وفتة وعمازا

وسرت معه أنلمظ، وأنا أسمع صفير بطني. جلس «مسعد» على  
طاولة من الرخام الذي تشرب الدهن حتى اكتمى، فجلست قبالة،  
وتطلعت إلى أطباق يتصاعد منها البخار، محمولة في أصابع النادل،  
الذي يلور بين الطاولات كتحلة.

داسمت كرامتي على جوعي، فقلت له في جليلة صارمة:

- جئت معك، وسنأكل معًا، لكن على شرط.

ابتسم بإفراط وقال:

- اشرط على كيفك.

- أرد لك العزومة، وفي أقرب وقت.

هز رأسه ضاحكًا ورد وهو ينظر في عيني:

موافق طبعًا

حين جاء الطعام أقبلت عليه كأنه آخر زادي، وسمعت بطني ترعد  
حين تدفقت الشربة الساحنة الدسمة إليها، وحصر جوعي وفتوتي،  
فهجمت على ما أمامي من أطباق يشبهية مفتوحة، وأنا أنجب النظر إلى  
وجه «مسعد» حتى لا أتذكر ما جرى في النطق المظلم وأتقيًا

وتركتني ملهًا في الطعام، وراح يداعب النادل، الذي كان يميل  
عليه، ويمس في أذنه لا أسمع ولا أريد، فيقهقه وتتناثر حبات  
الأرز وسائر اللحم المطحون في فمه على أطرافه. وكنت الملح هذا بطرف  
عيسي، وأضحك أيضًا، لكن بداحي، وأدعو لـ «سميرة» التي كدت  
حتى تنقذني، فأنتقذتني بالفعل، من القتل مرة، ومن الجوع مرة.

نظر إليّ وقال:

- أرجوك سامعني إن كنت قد أخطأت في حقك.

وكانه أعطاني بهذا إفتنا أن أريد في الطعام، فرفعت يدي إلى  
النادل، وطلبت صحبًا آخر من الفتة الدسمة. وأخذت أزدرد كل  
ما أحده أمامي حتى شعرت أن الطعام قد وصل إلى فتحة المريء  
العلوية، ولم يعد بمقدوري أن أصيب لقمة واحدة، ولا رشقة،  
خوفًا من أن يفتق جرحي الجديد، الذي صنعه أحد أتباع هذا  
الذي يجلس أمامي، ويجدثني عن الأخوة والصدقة من أجل أن

يحطف مني فتاتي، ويعدّها قد ير كلتي خارج هذا الحبي الدن  
أو يحرض من يلقي بي ليلاً على قصبان المترو، فيظل أهلي يبحثون به  
جدوى عن أشلاتي.

قمت لعسل يدي، ولمحت مقناً يسكن عيني فتاة جالسة إلى طاولة  
مروية في الركن، كانت تحبى خلف أسنانها بصقة، وحين مررت من  
جانبها، فعلتها على الأرض غير عابئة بالناس، ورفرت وقالت بصوت  
وصل إلى سمعي:

- رينا ياخذ الأراذل.

التفت إليها وعلى وجهي حيرة، فسألنتي:

- شكلك ابن ناس طيبين، فما الذي رماك على هذا المحرم؟

انسمت وأجبتها:

- رمانى الهوى.

وخرجت فوجدت «سعد» يقف أمام الطاولة، وقد مديده في جبه  
وأخرج عشرة جبهات فقط، ومدّها مبرومة إلى النادل، وقال:

- ما معي، والحساب يجمع.

رد وعلى وجهه مسكة

- كلك فلوس يا رعيم.

وأردت أنا أعبر الموقف الذي لا أفهمه فقلت:

- ما عند الرجال لا يضيع.

وأمسك يدي، وشدني، فدفعت قدمي إلى الأمام حتى أحاذيه،  
وسرت إلى جواربه، وأنا منقسم على نفسي. ف رؤية الناس لي بصحيتي  
سجعلهم يانوني، لكهم بالقطع سيمقتوني، ويلعنوني صامتين.  
و قد يجبر بعضهم ويطلق حفيصاً مثلما فعلت الفتاة التي عبرتها في  
السمط، والتي فوجئت بـ «سعد» يسألني بشأنها.

- ماذا قالت لك هذه المجنونة؟

صمت برهة وأجبت:

لم تقل شيئاً

لكنني رأيت شفيتها تتحرك وأنت تنظر إليها.

- كلام فارغ، لا يستحق التذكر.

فارغ أو ملان، أريد أن أعرفه.

- كانت تغازلني.

- بل كانت تسبك.

كيف عرفت؟

- ملاحظها، ويصقتها التي وصلت إلى ركبتيك

- يبدو أنها غير متزنة.

لا، بل تعرف اليوم الذي لا تطلع له شمس.

مدالي «سعد» ذكياً بدرجة أعلى مما تصورت، وأبأ الذي ظننت أن  
عقله قد مات، أو على الأقل في إجازة طويلة.

التفت إلى الخلف وبصق بقوة وراح يلعنّها، ثم قال:

- «عيون العواهر جواهر».

وحين جلسنا متقابلين بالقمي لاحظت أن وجهه قد تغضض بكراه  
وغضب، وبدا شارداً كأن أحداً سرق روحه عاد إلي، وزهر في وجه  
وقال:

- عكرت مزاجي، ولولا أن يقال إنني ضريت بشأ كنت قد علمته.  
الآدب.

صحكت داخلي وقلت لنفسي دون أن أنطق: «أنديك أدب أيا  
السفيه لتعلمه لأحد»، لكن ما وصله مني هو يدي التي طوحت بها في  
الهواء، وصوتي الذي قال:

- لا تعكر صفوك بهذه المخيولة.

وعندها أغمض عيني، وأصدر تهينة اهترها سطح الشاي الأحمر،  
الذي بدأ في يده الخشنة وكأنه ماء جهنم، وقال:

- رمت عليّ همّة بشعة، وظلمتني، وحاولت أن تسيء إلى سمعتي  
صحكت داخلي من جديد عن هذا الذي يحدثني عن السمعة وكأنه  
أحد أساتذتي في الجامعة أو حطيب مسجد «المواردي» الذي يملأ عيون  
في جلستنا تلك.

ولم أجد ما أقوله له سوى:

- ريك مطلع على كل شيء.

ارتاحت ملاعقه قليلاً، حين ظن أنه قد خدعني، وأتني صدقته،  
ونظر إليّ نظرة قصيرة لكنها عميقة، وقال:

- رغم كل ما تراه وما تسمعه عني، فإن لي قلباً طيباً، وأبيض من  
اللس الخليل، لا يعرفه إلا من يقترب مني.

لم أرد عليه، فأرسل عيني إلى نهر الشارع وعاد:

عاوزك تطمنن «سميرة» من ناحيتي.

دق قلبي بعنف، وروادتني نفسي أن أمسك بيداً من الشاي ماء  
حهم فوق رأسه، أو على شعته اللتين تبدلها المجاسة وتسدان اسم  
حيثي، وليكن ما يكون، لكنني غاسكت وجاريت في الكلام:

- عقل «سميرة» أكبر من سنه، وتميز الخبيث من الطيب.

لم يرق له ما قلته، لكنه كان على ما يبدو قد قرر أن يصبر عليّ أطول  
من استطاعته، وربما كان يتمتم دأبه «إن كن لك عند الكلب حاجة  
قل له يا سيدي».

كتم ضيقه وقال لي:

- ستلوم صداقتنا وتصبح نسيبي.

أحرجت لساني داخلي، ويصفت داخلي، وتوحيحت أيضاً بين  
صلوعي، وقلت له:

- ريك يُديم المحبة.

لكنه لم يكتب بمثل هذه الردود التي لا تعده بشيء، بل مد يده وقال.

- نقرأ الفاتحة.

- علام؟

- تساعدني كي أتزوج «سميرة».

سحبت يديّ من فوق الطاولة ورميتها إلى جانبي، وقلت له:  
- لها أب وأم، وإخوة أشقاء، وأح من أبيها، ونترك كل هؤلاء  
وتطلبها من أخيها في الرضاعة.

فهقه وصر بجهته بكفه ورد عليّ:  
- كل هؤلاء لا تسمع «سميرة» كلامهم.

نظرت إليه باستعراب، وقلت:

- حتى أبوها؟

- أبوها رجل مراوغ، يلاعبي ويلوعني، وهي تسوق عليه الدلائل  
فيمشي وراءها.

وسكت برهة وواصل:

- سبها على اسم امرأة عشقها زمان، ولم ينسها إلى الآن، وهو  
ضعيف أمام بنته ضعفه أمام عشيقته.

غاضني ما قاله، لأنني أدركت أنه يعرف عن «سميرة» أشياء لم أكن  
أتمنى أن تصل إليه، وساورتني شكوك في الطريقة التي عرف بها،  
وتذكرت ملاحظته لها على الكورنيش فاصطرم الأسي بين جوانحي  
لكنتني فكرت في أن يكون قد عرف هذا من جلسة إلى جانب «عبد  
الشكور»، في المكان الذي أجلس فيه أنا، فوق الكبة التي لا تكف عن  
الاهتزاز والأزيز، وسمع إلى ثروته التي لا تنتهي.

ما فكرت فيه جعلني أسترخ قليلاً، وحين رجعت إلى البيت عرفت  
ما لم يرد على خاطري قط، وضحكت من أعماقي على صروف الدنيا  
وتدابيرها

عرفت أن «سعد سلطنة» من صناعة «عبد الشكور» .. نعم هذا ما  
حبري، ولم أكن أظنه العتي الشقي الذي يذر الشر في الأركة وفوق  
الهدامات المطاطة لتلك البيوت المتداعية، مر يوماً من تحت إبط هذا  
المجوز الماكر، وسحره كلامه الناعم، وانزلت قدماً إلى المسار الذي  
يسلكه الآن، وهو يتوهم أنه لا يفعل سوى ما يفعله الطير البريء، يغدو  
حصاً، ويعود بطناً، كحالي الآن

## الفصل السادس

تجرات أخيراً. تساقطت بقية حياتي تحت عجلات السيارات المارحة والأحذية اللامعة، ومددت يدي إلى الخارحين من مسجد «الحامدية الشاذلية»، وما عادت به دسسته في حبيبي، وأصبح لدي ما جعل موسمي أن أغتير ما فوق جلدي. اشتريت قعيصاً وبطالاً وجاكيت جديداً. كنت أريد أن أبدو أمام «سميرة» كما تحب أن تراني.

مجننت الحلوس إلى «عيد الشكور» حتى لا يكتشف أمري، ويخترع حيلة أخرى، ليسلب مني رزقي. زعمت له كثيراً أنني مشغول، وأن بعض محاضراتي قد صارت ليلاً. كان يسمعي ويكنم شكوكه داخل محجريه الصيقين، ونفسه الماكرة

حين رأي شوب حديد لم يدعني أضعه إلى غرفتي، ناداني بصوت فاطم:

- تعال يا هــرب.

شعرت بوخزة حادة في صدري، واستعدت قدرتي على التحايل، وذهبت إليه بعينين ثابتين، فنظر فيها طويلاً، ولم يضع وقتاً، إذ سألتني:

- هل وصلتك قلوب من أهلك؟

كان يشبر إلى ما دفعته له قبل يومين، وربما إلى ما رآه من آثار نعمة قد ظهرت عليّ.



وضعت يدي على ملايبي، وهزرت رأسي:

نعم.

عاد إلى اقتحامني:

- وهل بمقدورهم أن يفعلوا هذا باستمرار.

أجيبته مداريًا تبرمي:

- الرزق بالله.

أسكنه مكروه، وفتح عينه اليمى ضيقًا، ونادى على «سميرة»، فجاءت على استحياء. وفي حماء أرسلت إليّ من عينيها ما لم تقله، فانتمت لها، ووصله ما فعلت أنا، فقال:

منعتها من بيع الورود.

لم أزد، وضايقتني ضياع حرص اللقاء في الهواء الطلق، وراح هو يبرر ما أقدم عليه:

- كبرت، والعيون لا ترفع عنها.

أضئت على كلامه:

- فعلاً، رينا يجرهما.

فأجاني حين اقترب خطوات أخرى من هدفه:

- تركت المدرسة لكنها تعرف القراءة والكتابة، وتنتظر من يعلمها

أكثر.. ذكية وتستوعب في سرعة.

نظرت إليها من طرف خفي، فوجدت وحيتها تردادان احمرًا، سرّت في شراييني حرارة الامتلاء بجها لها الأخاذ، وتمنيت لو قطعت المسافة الفاصلة بيننا وأحدثها بين ذراعي، وقُلت كل وجهها

وقرأ هو على صفحة وجهي ما يدور بداخلي، فقال لها:

اعلمي شاي.

واسحب على مهل، وجلساها الصيق يلتصق بجسدها المشوق الريان، ويرسم في بقعة الضوء المفروشة على الأرض معانها أمام عيني، حصرها التحيل وكتفها المستديرين وعجيرتها التي تترجح في لطف واسياب، وشعرها الذي يسدل على كل هذا.

«أمووووووووووووت»، قلت هذا في نفسي، وشعرت شراييني تنبع، ودعاني تسخن، وأدركت أن ما بيني وبين «سميرة» لا يطلب امتلاء الروح فحسب، بل إرواء الحسد. قفلت بصوت هامس، وأنا أسمى الرجل الخائس إلى جواربي:

أعشقك روحًا وحسدًا

وكانت أذناه ملوّهتين بصوت بصاقه فلم يسمعي، لكنني أنا الذي كنت أسمع صوت لذتي المكتومة، وأرى الصورة الرائعة التي رسمتها غيظتي على حذار مواجعه يرشف النور ليمحو ظلمته إنها صورة «سميرة» وقد تخطت عي سترها، وعادت كما بدأت، وقالت. هنت لك. رد عليها عجري وعلياي الساكن، وسألت «عند الشكور» من دون أن أحسب شيئًا.

- هل ستروجه للمجرم الذي يظلمها؟

شرح الهواء بكفه، وقال في غضب:

- لن يلمس ذيل ثوبها.

ثم نظر عميقاً في الطريقة نصف المظلمة وهمس في أذني

- إياك أن تظن أنني أخاف هذا الجرو.

جاريته مستعيناً ببعض مكره

- أنت لا تخاف إلا من ربنا.

طمأنه كلامي فانتطلق في الكلام:

- هذا الولد كان من صيبي، أنا الذي علمته ما هو فيه . لس

بالضبط هكذا، بدايته كانت مختلفة وقت أن كنت أتابعه، ثم غرد عني.

ونسي نفسه بمرور الأيام، لكن العين لا تلو على الحاجب.

وتذكر أنه كان قد أبدى لي من قبل مخاوفه منه فقال:

- الآن لم يعد وحيداً، كَوَّن عصابته، واستهتر بالجميع، ولا يحجرب

عنه سوى عجزي عن التهوض، وخوفي على أولادي.

مد يده إلى القروطة صغيرة الحجم الملقاة بجانه دوماً وبصق فيه.

ورماها من دون عناية، فسقطت على الأرض، وهرع إليها على الفور

مثل كان يدب سحاً عن أي شيء يطعمه. نظر طويلاً في السقف المملوء

بالتلوثات والجروح والخمر، وعاد ليحدي أنظر ما سيجوده، فقال:

- النقطة من بين الصبيان وعمته كيف يحطف، لكنه عص اليد التي

امتدت إليه. ولد عاصي، ابن حرام.

تطلعت إليه مدعشاً، وسألته في حدة:

أنت من صنعت هذا المجرم؟

رمقني بطرف عين تسللت إليها حمرة قانية، وقال.

- ما بدأ به غير ما هو فيه الآن.

- أشعلت النار ولم تطفئها.

- كان عرصي أن يحمي الناس مقاس أن يعطوه ما يعيش منه، لكنه

صار هو من يعتدي عليهم

يعيش هو أم تعيش أنت؟

- ماذا تقصد؟

- مرحته ليجمع لك الغلة، كما تفعل لنا جميعاً؟

لا علة ولا نس، أنت فعلاً صعيدي قفل، ولو لم أفتح لك مخك لت

هنا من الجوع، أو علمت إلى بلدك بحسرتك.

لم أشأ أن أذهب في إعفائه إلى حد لا يطيقه، ولم أنجاور شعوري

بالامتنان له في هذه اللحظة، فلولا ما استقر بي المقام هنا.

مهضت من مكاني، وتقهقرت خطوة، وجهي إليه وصهري إلى جدار

الزقاق، لكنه مد أصابعه نحوي، وقال:

- تعال.

وجئت، وتابعت أصابعه وهي تلوي وتشير إلى المكان لذي كت

أجلس فيه على الكبة قبل وقوفي، فجلس، وسمعت وهو يقول

الشاي يا «سميرة».

وجاءت قبل أن ينهي الحرف الأخير من طلبه، وكأنها كانت معه  
وعلى كفيها صينية الشاي لتتصت علينا.

حاضت كما ذهبت، تمشي على قلبي، وعاد إليّ اشتهائي الذي  
قد غاب مؤقتاً في رحمة ما تبادلته مع أبيها من كلمات، وكما كان الشـ  
ساخت كنت، وأنا الذي أعرف جرحي وشدة رغتي. وفي فوران  
له، قبل أن تغادرنا:

- زوجتي «سميرة».

هي جرت إلى الداخل نجلى، وهو اسطغت ملامحه وسكها اربا-  
لكنه فاجاني بسؤاله.

- هل من جديد في موضوع «دار الهلال»؟

كنت قد سئته أو تناسيته، وسؤاله أشعل في نفسي نار العيظ، وعاد  
إليّ عجري وقلة حيلتي وفهمت أنه يريد لسته ووجهاً من الأقدمة،  
وليس من الأرواقية مثل أولاده، وجاء إلى رأسي ما أفعله هناك أمام  
مسجد «الحامدية الشاذلية»، فشعرت بالأسى والانقراض، وانكمشت  
داخلي، ولم يكن أمامي سوى رد عايد:

- رينا سهل

شربت الشاي وصعدت إلى غرفتي لاستعبد روح «سميرة»  
وجسدها، وأنا أرسل باطري ليشاكس ما يبين على الأسطح المجاورة في  
حيوط الضوء القادمة من لبات الشوارع: كراكيب من الخشب والصمغ  
وقطع صغيرة من حديد صدي وأواني قديمة متأكلة، وملابس مهترئة

أدراج قش وحطب ضئيلة، وهوائيات التلفزيونات الملوثة، وحبال  
ممن المشدودة والمرتحية.

نلهيت بها أرى وأنا أنتظر ما أود أن أسمع حين يرحل الليل، تنهدات  
مارة لساء مععضات العيون، ورجال يزفون لحفتهم، وتميت هذه المرة  
بسميح لي الفتحات والكسور التي تصيب المواقف بأن أرى بعض ما  
هري، لتسعر تشوقي.

عدت في الليلة التالية من أمام مسجد «الحامدية الشاذلية» منتبهاً بدفء جيبى، لأجد «عاطف» في انتظاري إلى جوار أبيه. ما إن رأيته حتى قام متهللاً، وحطمني بين ذراعيه، وقال في حسم:

- عازمك على سهرة جميلة.

وقلت في نفسي إن محاولات للصعود قد نجحت، وإبه سيصحبني إلى مسرح أو دار سينما، بعد أن حصل على دعوتين مجابتين، من ممثل شهير. التفت، أو محرج عرض عليه دوراً في مسلسل أو فيلم، لكنني فوجئت به يقول بعد أن خرجنا من الزقاق إلى نهر شارع «بور سعيد»:

- سأأكل عند «بحة»، ونشوف فيلم أو اثنين على قهوة «عنية»، وبعدها «قعدة مزاح»

ورققت بطي، وامتلات عيناى بالصور الملونة، ودارت رأسي في مناهة باهتة كحوائط الأرقعة المنسية، واستعداد جسدي نشاطاً مفرطاً، وأقبلت الدنيا عليّ، أو هكذا شعرت في هذه اللحظة.

كان الطقس منعشاً، تمتع له شهية السهر، وكنت في حاجة ماسة إلى كسر رتابة معيشتي القاحلة، وأن أعرف بعض مباهج المدينة، كما عرف أوجاعها.

في الطريق لم يضع «عاطف» وقتاً، وعبر بلسان أبيه:

«سميرة» أقرب إخوتي إلى نفسي، حنونة، تخرج القصة من فمها، «سمعتها في فمي».. رغم جأشها فيها شهامة رجل شجاع يا بخت الذي سيكون من نصيبه.

فتحنت له قلبي:

- أبت فتان وتقدر أن العشق ليس بأيدينا وله سلطان غالب.

هر رأسه في إيجاب:

- أكتوي ساره، ولا أعرف كيف أطعمها، رغم ما ألقبه من صد وهجران.

- مثلك سيعلمي وسيعذرنى

هر رأسه في إيمان، وقال بصوت معمم بالحن شجوة:

محظوظة «سميرة» لأن من وقع في عرامها فيلسوف

أطرنى ما قال، لكنني أندبت تواصلاً

- قل «مشروع فيلسوف» فلا يزال الطريق طويلاً.

وسكت برهة ثم واصلت:

- كما أنني لست وحلي الذي يهاها.

قهقه، وضرب يده في الهواء مستهناً:

- أتضع نفسك أمام هذا البلطجي؟

بل هو الذي يصع نفسه أمامي ويمنع عني «سميرة»، لولاه لخطبتها من أبيك.

تمسح وغرق في نفسه وقتاً قصيراً لكنه ثقي، وعاد يقول:

- غرفتك سكنها كثيرون قبلك، لكن أحداً منهم لم يدخل فدا.  
جميعاً سواك .. حتى «حسونة» الذي يكره نفسه يودك.

كنا قد وصلنا إلى سور مدرسة «السنية» فامعطينا يساراً، ودخلنا  
رحاب «الناصرية». بيوت يسكنها الزمن، بسيطة كأصحابها. رح  
يتقاطرون في الشارع المتعرج قليلاً، ونسوة يملن بأجسادهن من البراد  
يتسلين بالعابرين

كنت قد شردت في كل ما حولي، ونسيت من يسير بجاسي وأدائه  
في زمن بعيد. تنبعت إلى غمرة من «عاطف» في كنف:

- الحب توه.

صحتك وقلت:

بل ذهبت إلى بعيد الأيام، وتصاريفها التي غيرت معالم هذا المكان  
العريق.

- أتيت إليه مئات المرات ولا أعرف عنه شيئاً.

عدت إلى ما قرأته في كتاب استعرت من مكتبة الجامعة وقلت.

في الزمن البعيد أسس السلطان الناصر قلاوون ميداناً في هذا المكان  
عرست فيه الأشجار وأحاطته الساتين والمشرهات، وكان النيل يرسو  
عليه في هدوء ووداعة. وفي المكان الذي تسير فيه كان السلطان يمضي فيه  
كل سبت راكناً حصانه في موكب مهيب حين يعضب الضيف ويدوس  
قبضه على الرؤوس، وحوله حرسه بشباب الحزير والكوافي المرركشة  
وأقام الناس هنا مباتي عظيمة.

أنصت حتى انتهيت، ثم قال في تبيل:

فعلاً، العلم نور.

- اعتدت أن أقرأ عن الأماكن التي أمر بها، لأعوض جهلي الكبير

«القاهرة»

- ولدا فيها، ونجهل حتى أسماء الشوارع التي يمر بها ليل هار.

اقتحمنا حلبة خارجية من المقاهي المتقابلة. أصوات محفورة في  
رأسى، تضحك، تيكى، تصرخ، تتحدث، تنفعل، تشتم رجال ونساء.  
شاب وشباب إنهم الذين يلحم «عاطف» بأن يكون يوماً بينهم، يطق  
أمامهم تحت ضوء الكاميرات المهر ودفعها اللامع بضع كلمات.

حلق «عاطف» في الشاشات المذورة في المقاهي المتلاصقة نقل  
بصره بينها، وحطه على وجه «أحمد زكي»، وقال:

- لا يعلم عليه، سندخل هنا.

كانت قهوة «عسة»، وكان فيلم «الرجل الثالث»، وكان مشهد  
الأخير يعرض أمامنا، ثم نزلت النهاية فوق وجوه الخالسين التي  
تسكنها دهشة صبية جاءوا من شوارع بلا أسماء بحثاً عن مسرة عابرة  
في أفواههم بقايا سحائر ولماض، وأمام أفواههم محابيات سوداء من  
دخان يعلت عفتاً بعضهم يقصم حنّاً محسوراً بطعام رهوم، يتدفق  
دهه على أصابعهم الملطحة بأنار الكدح والإهمال الطويل

تعتق الهواء برائحة البنجو واليكوتين والقطران، وراذ الضحيح  
بسمال مدفوع الثمن.

أمام التلغاز وقف البادل، ونظر إلى الساحة اليسرى باحتقار، وإلى  
اليمين بقليل من الاحترام، وسأل:

- الفيلم نفسه أم تشاهدون غيره؟

بدأ أن الأعلبية لم تكن قد شاهدت الفيلم من أوله، فارتفعت الأصوات طالبة الإعادة فدفن النادل الشريط في بطن الفيديو، وصعد زرار الريموت، فتوالت أسماء الأبطال معلنة بداية ما كان قد انتهى فلم نقلت عيسى بين الشاشة وأقدامهم المحشورة في أحذية باله، وشاشب من جلد رخيص وبلاستيك، ومها تطل أطرافهم المتسحج، وكعوبهم المشقوقة الملوقة بتراب الشوارع الضيقة والحارات لمحت واحداً منهم كأني رأيته من قبل، هكذا شُئ لي. كانت عده مكسرتين، وعارقتين في الأمسى، وشفتاه مقعدتين، ربيها من الطفا، وربما من ألم الروح.

أعبت النظر فيه دون أن يشعر بي، فعرفته. كان «صلاح» الذي أحده «سعد سلطة» منه فتاته، وقهرها أمام عييه فقهره أشد منها. وتأكذب من هذا حين ناداه الولد الذي يجلس خلفه:

- أصبح يا «صلاح»، الفيلم بدأ.

عاد من شروده، وعانقت عيناه الشاشة الملوقة، دون أن يعاديه أنه في الجانب الآخر من المقهى كان يجلس شاب ورجل في أوسع العمر، على هيئة أخرى غير تلك التي عليها الصية ياقات نظيفة، وأحذية لا تظفي لمعاها درات العسار التي علفت بها في شوارع «الناصرية»، ووجوه ليست بمروضة.

طافت عيني بهم، وفجأة ارتح قلبي، وانفجر ألم في بطني، وعامت الرؤية أمامي، وركبني غم شديد واشمثر، وضُمت أدبي عن الصور

هلي الآتي من التلغاز، وكبحت جماع نفسي التي صورت لي أن أحجم مل الشخص الذي رأيته، وأغرس أصابعي في زوره ولا أتركه سوى حنقه هائلة.

كان صبي «سعد سلطة» الذي طعنني في الحافلة، وسقى أرجل الخالسين على مقاعدنا من دمي.

نظرت إليه في غيظ، ولم يكن قد رأي، وعدت لأنظر في وجه «صلاح» يسكون بالحر.

أصبحت في مكان واحد مع من أراد قتلي، ومن قتله عريمي حرج «عاطف» فجأة دون أن يبشي إلى أين هو داهب، وعاد بعد قليل وفي يده علبتان من البلاستيك الرقيق، وقال:

- جت لك طق قسلة.

- قسلة؟!

- طق أرر نلس عليه قطعة سبوسة وكفاة وقشطة وعسل أبيض وقطع موز وماتحو... تصيرة على ما ينتهي الفيلم، وبعد العشاء الدسم

وحلس إلى حاسي يأكل في نهم، وأب أرى في مقلتيه صور أبطال الفيلم. كان شعوقاً بهم إلى درجة أنني أعطيت ظهري لتلغاز، ورحت أنفخ في عيني، النير كنت نجعلان المشاهد عميقة، تفرد الأثير، وبصير من لحم ودم، وكان هؤلاء الممثلين الذي يسكون أصواتهم في آذان الخالسين، مدحاء وإلها، وتعطي رءوسهم سحبات الدخان الخارج من الأنوف والخلوق.

( 3 )

لم تكن هي المرة الأولى التي أضطهها نائفة في ملاعبي الحشنة، وتعب قدماها لخطواتي لفت انتباهي غير مرة، لكنني كنت مشغولاً بـ «سمرة» ولا أرى غيرها.

اليوم فقط بدأت أرى هذه الحديدة، حين وقعت في مواجهتي تعبر شفيتها ابتسامة عذبة وسألتنني:

- لماذا غبت بالأمس؟

ها هي تين لي أنها تتابعني، وأن غيابي عن المحاضرات قد شعلها، كما يشعلها حصوري. قطعت خطوات واسعة نحوي، ولم يكن أمامي من سبل سوى أن أجيبها بأي شيء. تنحمت وأحتتها:

- كنت مجهداً.

أطلقت بعض قلق في ملاعبيها، وأحدث جسمي الرفيع في مقلتها. اللتين امتلأتا حناناً، وقالت:

- سلامتك، ألف سلامة.

ثم هرت وأسهأ، وانصرفت صامتة على مهل. تابعتها إلى أن عابت في الردهة الطويلة شبه المعتمة، وغمرتها بقعة الضوء المهر التي ترسلها شمس العصر من النافذة الغربية.

كان اسمها «أمساء»، وأتذكر أنني في أول مرة أسمع أحد زملائنا ينادي عليها، تنمت في سري: «أمساء أم أفعال؟»، وصحكت دون أن يشعر بي أحد، لكن لم يدر يخلدي يومها أنها ستأتي إلي هكذا راضية، وتجذبني في رفق ودهاء إلى بدايات لا أعرف إلى أين ستتهي؟

و حين احتفت عدت إلى نفسي فوجدت شيئاً جديداً قد طرأ عليها. ونردد داخلي سؤال: من هذه؟ وماذا تريد مني؟

لكن وجه «سمرة» جاءني وملاً الجدران أمامي. كلما التفت إلى انحاء أجد، فأعصت عيني عليه، ومضيت في طريقي قابضاً على ما في قلبي من مسرة

عن كوبري الجامعة رحت أستعيد ما عشته معها من تفاصيل، تقفر إليها وجوه إخوتها وأبيها، وأمها، لكسي أطرد لها لاستعيد وجه حبيبي، وأغرق في نثار الحكايات العذبة والمبهجة معها.

وجيها كان يملأ صفحة النيل، وأوجاهت البنابات النظيفة الشاهقة على ضفتيه، وأشرفة المراكب التي تمشي على مهل، وجوانب الحافلات التي تمر محشوة بالبشر، وأسطح السيارات التي تغرق بهجتي لا تدري عن لوعتي شيئاً.

لم يكن «عزاري» في مكانه، وسائقو سيارات راحوا يرسلون عيونهم بحثاً عنه، وهم يتباطئون ويطلقون الأبواق. يستمع لهم القادمون من الخلف بأبواق أخرى، فيضغفون على دواسة التززين وينطلقون.

وصلت إلى الكوريش الذي طالما نقرت عليه خطواتها السريعة. لم تكن موجودة، فقد اعتزلت مهنتها الحميلة كما أبلغني أبوها، لكن الورد كانت محمولة في يد طفلة تراقص صغير تاه السمينتان في

وجه الريح الحافظة، التي توجع فستانها المركش وهي تجري به،  
العشاق، كانوا كعادتهم يمشون الهوينى. يتوقفون ليتناجوا وعبوهم،  
الماء، وظهورهم إلى العابرين، وكانت هي تخرج لهم فجأة، كأن الأرض  
قد انشقت وألقتها، وتقدم لهم يدها اليمنى بورود حمراء.

جلست على المقعد الحجري الطويل الذي كان عنده لقائي الأ،  
بد «سميرة» و ناديت بائعة الحمال الجديدة، فهرولت نحوي. اشتريت  
وردة حمراء، وأودعتها في بطرس كتابي، وبصت قاطعاً الطريق إلى «  
العقارب».

حين وصلت لم أحد «عبد الشكور» مكابه كانت هذه هي امره  
الأولى، منذ أن جئت إلى هذا البيت، التي أرى فيها الكنية حالي  
وقعت عن الباب وقتاً لم يطل، ثم صعدت إلى غرفتي، والشمس تناهت  
للمسقوط خلف حبال القسيل

كاست العتمة راقدة في جيبات العرفة، وكسي مشائرة فوق الطاول  
المكسورة، لا تظهر عاوينها المكتوبة على الأعلفة جيداً، ومستر الطلاء  
الخفيف اتساح الوسادة وملاءة السرير وشر اشف العطاء الذي أتدبر  
هـ

ألقيت جسدي فوق السرير، وملاً أدني أريه الذي انمحر عالياً،  
وراح يجمع تدرجياً، حتى مات. مات تماماً حين حطت عيناى على ظل  
خفيف يقترب في وجه صوء اللمبات الشحيح كانت «سميرة»

وقفت على الباب وقالت:

- مساء الخير.

وعرف قلبي، ونصح وجهي بالعرف لم أرد سلامها، إنها سألتها.  
- أين ذهب أبوك؟

في البيت.

- لم أحده على الكفة حين دخلت.

- كان في الحمام، سئلته حتى هناك أُمي لم تعد قادرة.

وتلفست حولها في العرفة وواصلت:

- خشونة الركبة لا علاج لها، وألمها لا يطاق.

وزفرت في ألم:

- المشكلة أن صدره زي مراجيع المولد.

اعتذلت في السرير، وقلت لها:

- أنتعب نفسه أيام الشباب، وهذه العقبي

أومأت موافقة على ما قلت، ويرق وجهها في العتمة التي يتخللها  
نور دابل فيها كأنه كرة من نحاس أحمر، بعد أن ذاب بياضه في الطلام،  
فوجدت نفسي أقترب مما أريد أن أبلغه، لأقول:

- أنتعبه العشق.

توهج وجهها، وسألت:

- وهل العشق يتعب؟

- إن كان من طرف واحد، أو حتى من طرفين لكن حل الفراق  
وتباعدت الأجساد رغم تعاقب الأرواح.



أقتربت من سريري حتى صارت يدها في متناول أصابعي، فمددت وأخذت راحتها الطريتين، ودست عليها في لطف، وقلت لها:  
- أحبك يا «سميرة».

ارتعشت راحتها في يدي كسمكتين صغيرتين تفلتان من صدام ماهر، لكنني قبضت عليها بشدة، فاستكانتا، وسمعت ما لم تقله: «هنت لك».

وصلتها حرارتي، وامتزج نبضي بنبضها، وتوهجت المشاعر والغرائز. مالت عليّ وقمت إليها. في منتصف المسافة بين شوقي وشوقها النسي شوقاً في لثمة خفيفة، سرعان ما صارت قبلة طويلة عميقة جانحه جدتها إليّ برفق فجاءت طيبة، حضنتها في لفعة، ولايت بين ذراعيّ

رأيت باب العرفة مفتوحاً فوقعت بين بارين صار أن تموت هفتها مني إن تركتها وذهبت لإعلاقه، ونار أن يرا أحد يصعد السطح فجاء، أو يمد عييه في المساحة المواردة من الباب التي تطل على أسطح الجيران

حسنت أمري حين استسلمت لي وسرنا طلام ما بعد العروب، فراد التصاقي بها، ورحقت شفتي إلى جدها الطويل تلثمه في تؤدة حارة، وأنا أستعيد معها كل ما كنت قد سمعته من عرسان بلدنا الخلد، حين كان يجلوهم أثناء الكدح في الحقول أن يحكموا تعاضيل مطارحة روجاتهم العرام، متباهين بما يفعلون، والرجال الكبار يهروهم، أو يعلمونهم في رفق.

كنت وقتها طفلاً نبصت إليهم في شعب، حتى أصبحت لذي معرفة نظرية عميقة تكفيني لاستدراج أنسى إلى فخى وهي تتلوى من فرط الشبق.

حين ملأت روعتها عينيّ، وسرى دفنها في شراييني جذبتها إليّ أكثر، ودستت أصابعي في صدرها وامتلكته فتراخت ومالت على السرير فملت معها، ولم يعأ كلاتا بأريه المتواصل، وأما أمطرها بالقبيلات ويدي تزحف إلى كل جسدتها، كي أمتحها النشوة كاملة.

أمسكت كتفه وسألته:

- أنعطي ورنًا كبيرًا لو اُخذ كان صبيًا عند أبيك؟

رفع كفه لسيارة كانت تتباطأ، لكنها عادت لتسرع وفارقتنا عاد  
بهول:

- كبر الصغير، والصبي صار معلّمًا يخاف منه الكل، بعد أن أصبحت  
له أنياب وأظفار، وصار بوسعه أن يمنع من أن يلتقط أوراقنا، وهو  
قادر على أن يجلس في يوتو

- هذه الدرجة؟!

أكثر مما تتصور

أرسل ناظره إلى عرض الشارع وقال:

- أقف هنا بموافقة.

ووضع يده على جيبه، ثم دسها فيه، وقال:

بقتسم معي نصف رزقي، ولا أملك الرفص، وإلا طردني من هنا.

-- وهل أبوك يعرف هذا؟

طبعًا.

-- ويسكت؟!

هذا ساير على الكل في المنطقة، ونحن نقبله كأنه قانون.

- لكن في البلد حكومة.

ضحك وضرب جيبه بيده، وقال:

(4)

استوقفني «أبو عوف» وأنا عائد من عند مسجد «الحامدية الشاذية»  
أجر ساقني المجهدتين مد ذراعه إلى آخرها وأنا قادم على بُعد خطوات  
منه، ثم ترك كفه تعلو وتهدأ كأنه يشير إلى سيارة، تحت عته ليسهل ما  
وقوفًا آمنًا

كانت هي المرة الأولى منذ أن أقمت في «تل العقارب» التي أحده  
راغبًا في الحديث لي. صافحتني بحرارة وقال:

- أصبح لك «سعد شلطة» عشم فيك؟

نظرت إليه مستهفًا، وقلت:

عشم إبليس في الجنة

بدا عليه انزعاج شديد، ثم انفردت شفتاه ونطق:

- الرجل قال فيك شعرًا، بدا غاية في الانسباط منك

نظرت طويلًا إلى وجهه المتلذذ، وسألته:

- ألا تعرف ما وراء انبساطه؟

ضحك فبابت أسنانه الصفراء من أثر الشاي الثقيل والسجائر  
الرخيصة، وقال:

- لا يهم، المهم أنه مسوط منك، وسألي عنك.

- أنت رجل طيب .. الحكومة تأخذ من «سعد» ثمن سكوتها ع  
كل ما يفعله بنا.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها أن «سعد» تسانده  
الشرطة، لكنني هرات في عيظ:

- رجال شرطة يبلطجون، وبلطجية يحكمون... سيان.

وعدت إلى ما كنا نتحدث فيه:

- ألا تريد أن تعرف لم يرضى عني «سعد» هذه الأيام؟

- قل.

- الأمر يتعلق بأختك «سميرة».

احتقن وجهه بدفقة غضب عارم، وانتلعي بعينه، ووقف شعر  
لحيته القصير كأنه قفله داهمه خطر، وغمغم قائلًا:

- أختي!!

- نعم هي، «سعد» قصدي واسطة إليها. يظنني أخاها في الرصاعة  
ضحك من جديد.

- من قال له هذا؟

- أختك؟

- «سميرة»!

- هي.

- مجنونة.

- بل ذكية

- أي دكاء في كذب سيكشفه «سعد» قريبًا، وساعتها سيكون  
الحساب عسيرًا

وسكت برهة، تنبه فيها إلى أن شيئًا مهمًا فاتته ولا بد أن يسأل عنه:

ما الذي جعلها تكذب؟

قلت في نفسي. «كي تحميسي إلى حين»، لكنني ضربته على كتفه،  
وفلت له وأنا أدفع قدمي لأبتعد عنه:

- اسأل عم «عبد الشكور».

ومصيت في طريقي وأب لا أعلم لماذا ألقيت سري تحت قدمي  
«أسو عوف»، وفرطت في الكدبة التي كانت تنقيني هنا إلى حين. لكنني  
شعرت بالارتياح، وكأني ألقيت من عبي صدري شُمت خال. وبدت  
حطواني أكثر حفة، لكن أثقلت الأستنة التي لا إحدت لها كاهي من  
جديد. هل أردت الانتقام من نفسي؟ أم أريد أن أهدم كل شيء فوق  
رأسي، الحب والبيت والسكينة المؤقتة؟ ما الذي يدفعني إلى هذا؟ أهو  
شيء محرك داخلي يدعوني إلى الانسداد عن «سميرة» وعن الكوايس التي  
داهمتي الليلة الماضية بعد أن ت وسروالي مبلل ببقايا شهوتي؟ أم هي  
الرعة في ترك هذا المكان العارق في البؤس؟

لا أدري ما الذي جرى، لكنني فعلت ما جعلني الآن مستريحًا لسبب  
حفي لا أقف عليه، استراحة تليق بنمو شاب ريعي وصعبد من فتاة  
سلمت له نفسها طيبة، ويجرمه جهله الذي صغته عادات وأوهام من  
أن يفهم أنه هو أيضًا سلم له نفسه، وربما سقها إلى هذا، لكن، وحسنا

تعود، لاند لذات الهدين والصمائر والتي ينتهي اسمها بناءً مربوط،  
أن تكون هي المتهم، هي السبب، وهي التي ضعفت، ولأب صعبه  
ويمكنها أن تمنح شفعتها وصدرها وهي راضية، فلا تصلح أن تكون  
شريكة حياة.

هذه حدود ما تربست عليه، ولم تعبرني الفلسفة التي درسها،  
وأعشفها، ولا أدري أيضاً لماذا حتى الآن لا تريد أن تغيري، أو لا  
أريدها أن أنغير بها؟

في الحقيقة لم تكن قد أعطتني كل شيء حتى اللحظة التي تحدثت فيها  
مع أخيها «أبو عوف»، لكن حتى هذا كان في نظر مثلي كثيراً.

بالطبع لم تسخر عاطفتي حالها هكذا بغتة، ولم يصعبها كل الفتور،  
إنما تحولت إلى رعة عارمة في الانتقام منها، لأنني وقعت في هواها، وهو  
يكاد يمر جي عن الطريق الذي رسمته لنفسي قل بجيشي إلى القاهرة  
جنث لأصير «فلسوفاً» وليس عاشقاً. سمعت إلى ها حتى يستيقظ عقلي  
ويبلغ مداه، فاستيقظ قلبي وتجاوز حدوده.

ربما كنت متيقناً من أن «سيرة» ليست لي فأردت أن أستعجل  
النتيجة النهائية، فوقع الدلاء حير من انتظاره، وربما كنت أنتشل نفسي  
من الوقوع في مع ما لا طاقة لي به، وما سأظل طيلة حياتي أهرب من  
تذكره.

وتساءلت من جديد وأنا محشور في الزقاق، والأحجار الصغيرة  
والقش والورق المتسحج يدور حول مسأقي في هوجة ربح خفيفة: هل  
سأجوز إن أفقدتها بكارهما؟ وكنت أعرف الإجابة وأقول لنفسي: لن

يكون أمانك من سبيل سوى الاقتران بها، وساعتها ستدبح كدجاجة  
ويطبخ دمك الحيطان المتأكلة.

عريب أمري، فقل أيام قليلة كان عابة المنى أن أعرف أنها تحسي،  
لكن يبدو أنني أعددت نفسي على أن أحبها فقط، متخففاً من كل ما  
يهرصه الناس على الحب من قيود ومسئولية، ومستعملاً إياها كإعاش  
على البقاء لها إلى حوار هدي الذي قطعت كل هذه المسافة في سبيل  
بلوعه، شيء يخفف عني العربة والفقر وعناء الاستدكار وصعوبة  
الطريق، بمسحي أي قدر من البهجة وسط أحراني الدفئة، وتذك التي  
تساقط على رأسي كالخصي المسون.

«أه يا غابني السيرة، كم أدفع في سبيلك كل عال ونفيس، أو كنت  
أحسب هكذا قبل أن تحرفني المدينة إلى بحرها الذي لا قرار له ولا  
شاطئ» قلت هذا لنفسي قبل أن أصل إلى البيت، وتقتحم عيناى كنية  
«عبد الشكور» وجسده المخطوط عليها.

حين وصلت كان طهر «إلى الباب، فحاولت التسلل خفية، كي أصعد  
السلم إلى مقبرتي وأنا حي، لكن فأز سميماً كان يسط مذعور، وحنفه  
قط أبيض يمسك جسده كي يلحق به. أحياناً جللة وهما يمرقان من بين  
سأقي حاولت تماديها، فاصطدمت قدماي بصفيحة قمامة، فأحدثت  
فرقة، وتأوهت متألاً، وكان ذلك كافياً كي ينتبه «عبد الشكور» لي.

- ما الذي جرى يا «رفعت»؟

كانت هذه هي المرة الأولى التي يناديني فيها ولا يسبق اسمي بلقب  
«أستاذ»، وكانت المرة الأولى التي أذهب إليه هذا القدر من التشاقل

والتأفف، وأرى كل هذا القبح مساكنًا ملائمة، التي تفوق وتظلمون  
الضوء الأصفر الشحيح.

قال لي كالمعتذر:

- ناديت باسمك هكذا لأنني أعترك ابني.

كان مثل هذا القول من قبل يجعلني أكاد ألقى بجسدي في حفرة  
الماشع، لكسي هذه المرة تلقيت ما تلفظ به بتور، وإن كنت، على أي  
حال، لم أفقد الامتثال له تمامًا.

ما حلّ بي في الساعات الأخيرة من عمري، الذي يمضي سادراً في  
رحلة شقائه، كان عصياً لندي عن التفسير، ولم أكن معشاً بالتفكير فيه  
بجدية، ليس لأن ذهني مكثود هذه الليلة، بل لأنني كنت أهرب من كل  
هاتف بصرخ داخلي أو همس، وأريد لكل شيء أن يصمت، ويعمض  
عينيه، وينعم بالسكون والسلام.

حتى حين احتليت نفسي في عرقي لم أجزؤ على الخملقة في صورتي  
التي تواجهي فوق صفحة المرأة المكسورة. كان نور لمة السقف في  
عيني، وكذلك الملوح اللامع للصقول، الذي تحط عليه ذرات تراب،  
بها جعلني لا أرى نفسي جيداً.

كنت محنتاً خلف العار الخفيف، والشعور بالجين والندالة والأفكار  
البالية الرائدة في رأسي، والساكنة في خلاياي.

فجأة ظهرت تحت التراب الخفيف على صفحة المرأة صورة فتاة، لم  
أتبين ملامحها جيداً، لكنني استدعيتها من ذاكرتي، وأسقطت ما استدعيتها  
على ما أراه مغشياً أمامي، فإذا بي أتيقن أنها التي مرت جديداً في حياتي

(5)

كانت هي، التي تريد أن تسلم في هدوء إلى شراييني.

سمعت أحد زملائي يصعب بالأهل في دفعته، لكسي كنت لا أزال  
أرى الجبال هو «سميرة»، ومع هذا كان من الخجود والتطوع أن أرى  
غير ما يرى.

جيلة الحسد هي فعلاً، لكن ما جذبي إليها أكثر هو جمال عقلها  
كنت تليق بأن تكون حبيبة فيلسوف، أو تحب من يريد أن يكون أكبر  
فيلسوف يكتب بالعربية.

ووجدت نفسي أرسل إليها نظرات حافظة، وأهرب قبل أن  
تنظري، ثم أصبحت تنظر إليّ، وتهرب وهي تظن أنني لم أضبطها.

كان هذا في المحاضرة التي أعقبت حديثي إليّ، حين اقتحمت صمتي  
وتوحدني، بعيداً عن زملاء أدري عنهم أشياء، ولا يدرون عني شيئاً

جاءتني بعد المحاضرة فذهبت إليها، والتقينا في منتصف الردة  
الطويلة، صافحتني، ودون مقدمات سألتني:

- هل لديك وقت لتناول فتجان من الشاي معاً؟

أومأت موافقاً، وسرت إلى حوارها صامتاً. لمحت في يدها كتاباً في  
الفلسفة ورواية. مسست الرواية بإصبعي، وسألته إن كانت قد قرعت  
منها، فقالت:

- في الفصل الأخير.

ورأت في عيني رغبة فاستجابت لها:

- سأعطيها لك بعد الانتهاء منها.

قلت في عجل

على سبيل الاستعارة.

وكنيت أعرف أنني أكذب، إذ لم أستر كتاباً من قبل وردده إن صاحبه، لكنها كانت أكرم مما تصورت-

- يمكنك ألا تعيدها، أو تنتظر لأهديك نسخة جديدة.

اكتفيت بأن أحصل على النسخة التي في يدها، وقلت مقترناً معها أكثر

أفضل تلك التي قرأتها أنت

كنت قد تدرت على اصطيد الفزلان، تعلمت في «سميرة» التي مسحتي شفتيها عن طيب خاطر، وتركت يدي تطوفان بجسدها، وها هو طبعها لا يريد أن يغادري حتى في جلوسي مع الفيلسوفة الجميلة

عرفت أن «أسماء» تقطن في فيلا بحي «المهندسين»، حين نطقت بهذا ارتعد جسدي، ورأيت نفسي وأنا أتخلص على الوجوه والجيوب أمام مسجد «الحامدية الشاذلية» وأدور بين الأجساد، كعذب جافع.

شعرت أن بيننا مسافة طويلة، وأي لن أقدر على اجتيازها. وزادت هي في طولها، وألقت فيها صخوراً وأشواكاً وجراً، حين قالت:

- أبي رجل أعمال، ولذا كان يريدني أن أدرس الاقتصاد، لكنني عشقت الفلسفة والأدب.

استحيت داخل متدثراً بعوزي وحجلي الذي يتداعى مرور الأيام، لكنني بقيت عارياً.

وحطت الشمس على يدها فلمعت في عيني أسورة ذهبية عريضة معشقة بمصوص شفافة شديدة اللمعان، ربما تكون من الألماس، أنا لا أعرفه، مثلي لم يقابل في أي يوم، لكن بدا الشيء لي هكذا في حيدها سلسلة تنتهي بروش كبير على شكل قلب، وقلت ها وأب أنظر إلى معصمها وعقها:

- فيلسوفة مشغولة بالذهب

نظرت هي إلى حيث أرسلت عيني، وقالت:

- ماما تصر على هذا، ولا أريد أن أعصها

ضاعت نصف المسافة بيننا، لكنها أعادتها مرة أخرى:

- لا تشغلني الزينة، وإن كان رغد العيش يهيجني.

استعدت صورة «عبد الشكور» وأولاده، وصورة أستاذي الراحل الذي حدثنا عن فلسفة التحايل، وقلت لها:

- هالك من تدفعهم بطونهم الجائعة إلى فعل ما لا تصوريه من أجل ملتها.

زمت شفتيها في أسى مصطنع وقالت:

- لم أر مثل هؤلاء، ولذا لا أجد لما نقوله أثراً قوياً في نفسي.

ضابقتي ما نطقت به، وسارعت إلى تذكيرها بما سمعته:

- حدثنا أستاذنا عن هؤلاء باستماعة. قريهم إليها حتى رآهم من لم يمر بهم يوماً.

طوحت يدها في الهواء:

لم أصدق حين تصور أن هؤلاء باباً للسعادة لا يمر به غيرهم  
استدعيت صور الكادحين في الحقول:

هناك من يجهلون الرغد، ويرصون بشظف العيش على أنه ما يجب  
أن يجوه

- لا يعرف فضل النعمة إلا من ذاقها.

حاصرني في احتياجي وهواني، فلدت بالصمت، لكنني لاحقتي  
بسؤال لم أنتظره منها على الأقل في هذا الوقت:

- أين تسكن؟

ملأت عيني من البيوت الخفيضة، والوجوه الصامرة، وأكوام  
القمامة، والقطط التي تطارد القثران، والبط السباح عند الصنوبر  
الضخم المكسور، والذي لا يكف عن تفريع بعض ما فيه على طير  
لازب، وقلت لها:

- «تل العقارب».

رنت ضحكها في الفراغ المحصور بين كلمتي «الآداب» و«الحقوق»،  
وسألت:

- هل هناك حي بهذا الاسم؟

- نعم.

- وهل تسكنه عقارب فعلاً؟

- بل بشر، أغلبهم صفادع وسحالي ونمل وجنادب، وقلة منهم  
عقارب.

- أسفة لم أسمع عنه من قبل.

لا بأس، أعتقد أن هناك أشياء وأحياء وأسماء كثيرة لم تسمعي  
عنها، وقد لا تسمعين.

تنهدت وقالت:

- القاهرة صارت متاحة كبرى، قارة بأكملها.

أخذي ما قالته إلى كل ما رأيته وأنا أنطوح وفمي يغرر في الحافلات  
التي تشق شوارع المدينة، وعدت من شرودي على قولها من حديد.

- هلجتك تبين أن أصولك من الصعيد.

- رائع، لكن كيف عرفت؟

- ريتا ييارك في المسلسلات.

- فعلاً أنا من قرية بمحافظة سوهاج.

- ما اسمها؟

- الكشخ.

رنت ضحكة أقوى من الفاتنة، وقالت:

- «تل العقارب» مبهومة أكثر، وتثير الفضول والخيال، أما الكشخ،  
فقرية، ولا أعتقد أن لها معنى.

ورأيها تقف فجأة، وتنظر في ساعتها وتقول:

- لا بد أن أنصرف الآن، فأبي دعاني إلى معرض للفن التشكيلي.

وقفت وقلت لها:

- رائع.

فماعدت بيننا من جديد حين قالت:

أبي مولع باقتناء اللوحات، وفي بيتنا منها ما يقدر بالملايين.

وضعت يدي على الجنيئات القليلة النائمة في قعر جيبتي، وودعتني وانصرفت صامتة

(6)

ما إن دخلت الرقاق حتى وجدت غلاماً رفيقاً، خده مشقوق بأثر جرح قديم، وفي يده مطواة قرن غزال، يلفها بين أصابعه في حفة، ويمزج بها الهواء. أقرب مني وسألني:

- أنت «وقعت»؟

أومأت برأسي:

- خير.

- المعلم «سعد» عاوزك.

وسار خلفي بهر سلاحه الأبيض فيحدث أزيزاً وشغللة تريدني حوقاً، وأنا داهب إلى المقهى وأعرف ما الذي سيجري لي. هررب رأسي لعله يسعفتني بمكرة، وأنا أعمض عيني قليلاً، حتى وجدت نفسي أمامه، وهو جالس بين صبيانه، مرهواً بقوته.

نظر إلي بطرف عين غارق في الأذى والأرق، وقال:

- أمثلك يكذب علي؟

خففت رأسي قليلاً، وأجبت:

- حاش لله، هذا لم يحدث قط.

راح يمعن النظر في وجهي المطلي سور أصفر فاقع يبعث من مصباح معلق في جانب الحائط وقال:



- أم تقل لي ..

قاطعه:

- أنا لم أقل شيئاً، هي التي قالت وأنت صدقتها.

أوقفته جرأتني المفاجئة، فترث في حديثه:

- صحيح، لكنك جارت الكذبة، وخذعتني.

- لم أخدعك، وما قالته ليس كله كذباً.

- لا أفهمك.

- أم تقل لك إني أخوها؟

- نعم.

- أنا اعتبرها أحتي الصغرى، وهي تعتبرني مثل أخيها، والأمر لا

يتعدى هذا، سواء كانت في الأمر رضاعة أم لا.

زال عنه بعض غضبه، ثم تجهم من جديد:

- لعبة جديدة.

قالت ابتسامة صفراء كادت ترسم على شفتي وقالت:

هي تاسيك، أنت لها وهي لك، أما أنا فغريب أنتي ليكمل دراسته

وسينذهب عما قريب من هنا، وإن فكر في الزواج فسيبحث عن فتاة متعلمة مثله.

تسرب الغضب من وجهه، وقال:

- عين العقل.

ووجدتها فرصة أن أحيدّه إلى حين، فقلت.

- يمكنك أن تعتمد عليّ في الوصول إلى ما تريد.

- أتراوغ مرة أخرى؟

- بل أنا جاد، وفي سلوبلندا يُربط الرجل من لسانه.

هز رأسه وقال:

سرى.

وخطف يده اليمى كرسياً ووضع به إلى جانبه، وأشار لي أن أجلس

وهو يألني:

- ماذا تشرب؟

رفعت رأسي إلى النادل الذي أسرع إليّ بما مجرد أن فرد «سعد»

صبغه في اتجاهه، وقلت:

- حلبة حصى بحليب، وزود السكر.

تابع بطرف عيه ظهور النادل وهو يتطوح بين الطاولة وقال:

- يتقم منشد في الأثويسات.

شعرت بأنني بطني. ومددت يدي إلى جرحي الذي كان قد اندمل

تماماً، أما الإهانة فلم أجد ما يطنه، ومع هذا تحملت على نفسي،

مستعياً بالمهارة التي اكتسبتها في لتيجع وأنا أمد يدي إلى الناس في

الحافلات أو أمام المسجد المسربل بأصواء خضراء.

بلعت ريقه وقلت له:

- لقمة حلال وخلاص.

قهقهه حتى اهتز الكرسي من تحته وقال:

- يا رجل! حرام بنت حرام.

- أهى سرقة؟

نظر في وجوه الخالسين حوله وقال:

- نصب.

لعب كل الإهانات الملتصقة بهذه الكلمة، ونظرت في عينيه بعد أن دفعت قلباً من التحدي في عيني، وقلت له:

- أكل عيش، كنت أوزع القمح وأجمع ما يعلأ بطني.

اشتم في خبث وقال:

- وهل ما تورعه أمام مسجد «الخامدية الشاذلية» فرح أيضاً؟

كأنه لسعني سوط حام، لكنني تمألتك نمسي وقلت له وأما ألمه الحزن عن وجهي:

- عن أي شيء تتحدث؟

ضحك من جديد وقال وكأنه يريد لكل من في المقهى أن يسمعه

- أب لا أعرف ما يدور في «ال عقارب» فقط، بل أعرف كل ما

يفعله سكانه في أي مكان يذهبون.

سحرت داخلي من هذا الذي يعتقد أنه أكر ضابط أمن في البلد.

وقلت له:

- الكبير كبير.

شتم بألفه وطاف بطرف عين بوجوه الخالسين حوله، ورد في صلب.

- غصب عنك.

بلعت إهائتي، وقلت له.

- ولم العصب؟ أنا أقولها عن طيب خاطر.

لم يرد، وشعرت بتعلمهم جميعاً على نفسي، فقلت، وأنا أقول

- لا يد أن أنصرف، عتدي امتحان.

مد يده وهو جالس وقال في ساجدة:

- سأنتظر نتيجة ما وعدت به يومين فقط، ولن أنتظر أكثر من ذلك.

لم أنظر في عييه وأنا أنصرف من أمامه، لا أعرف إن كان هذا خوفاً أم احتقاراً، لكنني رأيت كل شيء في عيني «عد الشكور». كنا مملوءين بهلع لم أعده فيهما من قبل. وكان هو يتلمل في مكانه فتصرح «الكبة» تحته بأرير حاد، لم يمهلني حتى التفت أناسي المهورة، من عاجلي:

- فتحت علينا باب جهنم.

صعقت أضراسي حتى سمعت صوت اصطكاكها الحاد، واستدعيت شيئاً من شهامة الرجال الذين تتردد سيرهم في ليالي السمير بقرني وقلت له

- لا أعرف سر خوفك من هذا الفسل الذي صنعته.

طوح يله في وجهي:

فسل!

- لا يساوي في سوق الرجال قدح غلة.  
هر رأسه:

- ومن مثل هذا تخاف، الجبان الذي لا أصل له حين تلتف حوله  
عصابة من التافهين مثله، وليس لدى أي منهم ما يخسره.  
وزفر في ألم وواصل:

أنت أمامك مستقبل تخاف عليه، وأنا عندي أولادي، أما هو  
فيتساوى عنده السجن والمقهى، الموت والحياة.  
أردت أن أشد من أزره على قدر استطاعتي:  
- أولادك هم عروتك، وأهلي الذين يوسعي أن أستدعيهم إن لزم  
الأمر.

ضحك في مرارة وقال:

- سيأتي أهلك قطعاً، لكن لا ستلام جشك.  
- الهذه الدرجة؟

- ستمزقك السكاكين في الليل، أو يجرم رأسك عيار ناري، وستفيد  
الجريمة ضد مجهول.

كنت أريد أن أقويه فأضعفني، ووهن صوتي وأنا أقول:  
- أنت تكبر الصغير.

لكنه راور عيه بعيداً عني ورد في صيق:  
وأنت لا بدرك ما الذي سيجري لك ولنا

استيقظت في الصباح على دقات قوية تنورع في حط طويل، تتناغم أحياناً، وتساخر في أحيانٍ. كانت عيفة واقتحمت عني حلاًّ ليداً، وشعرت أنها تنقر في رأسي قمت إلى النافذة ومددت عنقي لكن الكراكيب المتركمة فوق سطح البيت المجاور جعلتني لا أرى

عذب إلى سريري، تقلبت عليه كثيراً، وجدبت الوسادة الممزقة، وسحبت منها خيطين عظيمين من القطر القديم الذي صار لونه رمادياً، كورتها بين أصابعي، ودسست كل كرة في فتحة أذن، ودفست رأسي تحت الغطاء، لكن الدقات لم ترحل.

أزحت الغطاء عن جسدي، وبرعت كرّي القطر من أدبي، وضربت الهواء بكفسي، وأنا أطرد التثاؤب الثقيل، وأتابعه وهو يتأثر في حنات الحجرة. حطت عياني على ملاسني المعلقة على المسامير المدقوقة في الخائط، فخطفتها وجريت نحو الزقاق.

لم ألق السلام على «عبد الشكور» الذي سمعت صوت سعاله ويصافقه حين أعطيته طهري، ووصل إلى شارع «بور سعيد» فوجدت الناس جميعاً مأخوذين بالدقات العالية للشواكيش، والأزير والصغير الذي تحذته مناشير، هكذا قدرت وأنا أسير نحو مصدر الصوت، حتى رأت عياني كل شيء.

كانوا يجارين موزعين تحت الكوبري، في أيديهم ألواح من خشب  
وتحت أقدامهم ألواح أخرى، وعلب صفيح مملوءة بالناسمير، ولغائد  
من صاج مقوى، ولوحات مكتوبة عليها حروف يحطوط مختلفه راق  
فوق بعضها في غير انتظام.

اقتربت منهم وسألت عما يجري فقبل لي:

- نبي أكشاك ليح الكتب القديمة.

رقصت داخلي دفعة فرح رغم الغم الحائم على بصبي، وسببت للمحط  
ما كنت فيه، وملائي إحساس بأن الكتب ستجعل هذا المكان أقل برؤس.  
على الأقل لأمثالي، وسيقصد الساعون وراء المعرفة.

وطردت لدقائق الكوابيس التي تتطوّر مع «مسعد سلطنة» ووجه  
«عبد الشكور» المكفهر، وأقبلت على الجارين كأنهم يفعلون كل هذا  
لي، لحسابي، وسألت رجلاً واقفاً يتابع العمل باهتمام:

- أكشاك كتب؟

هز رأسه وقال:

- مترو «العتبة» فرق بين مائتي سور الأريكية، وهنا نصينا.

استعدت كل ما أعرفه عن «سور الأريكية»، الذي دعبت إليه ثلاث  
مرات منذ مجيئي إلى القاهرة، وقلت له:

- هذا المكان سيبدد زيونه.

أرسل نظرة شاملة إلى الجارين المهمكين في عملهم، وقال:

- الرزق على الله.

بعد يومين جاءت عربات نصف نقل وكارو محملة بالكتب، وانهمك  
بحال في تفريتها على الأرض، وتولى أصحاب الأكشاك توزيعها على  
الأرفق التي فهرسوها على صنوف المعارف.

وأصبحت أنا أول رسون، بعد أن اجتهدت في الليلة «الفاتنة» أمام  
مسجد «الحامدية الشاذلية» بأقصى طاقتي، وصار معي مبلغ يكفي  
لشراء زاد ثلاثة أشهر من الكتب.

ورأت «أسماء» كتاباً في يدي، وسألتي عن المكان الذي اشتريته منه،  
فحكيت لها عن صناديق المعرفة التي تلاصقت تحت الكوبري، وقلت  
لها: إن بينها وبين غرفتي دقائق معدودات، فامتلات شغفاً، وأصرت أن  
تذهب مباشرة إلى هناك.

بعد المحاصرة أخذتني إلى سيارتها، دارت حولها، وفتحها وأخرجت  
بعض المتاديل الناعمة ومسحت بقعة صغيرة من الوسج كانت على  
رعاها الأمامي.

- «يجو 504»

هكذا قالت حين سألتها عن نوعها، رغم أنني لا أفهم، ولم أسع إلى  
فهم أنواع السيارات وخواصها، وأتبعته إجابته.

- أحب كل شيء فرنسي، في الثقافة والأطعمة والآراء والعطور،  
حتى السيارات.

قلت في داخلي:

«الكشع» و«تل العقارب» في وجه «باريس»... يا للهول!

وسألت بصبي:

- أي شيء أعجبها في؟

وهزعت إن كنت بالنسبة لها مجرد سوع جديد من البشر، لم تره من قبل، وقررت أن تجربته وكفى، كما تقرأ بعض كتب القرائب.

لكن شعرها الذي تطاير على كوبري الجامعة بسبب السيارة تمزق في الطريق المفتوح، حمل معه كلاماً كثيراً لم تقله، لأنها بدت مستريحة وأنا أشم رائحته العطرة، ولم تعترض حين داعيته بأنا ملي. وحين تباطأت السيارة عند مدخل حي «المنيل» قالت:

- أسفة، ضايقتك.

لكنني سارعت إلى القول.

- هذا أسعدني.

استمتت في عذوبة، وللمت شعرها البعثر ممسك برتقالي قريب من لون فستانها. ومن تحت إبطها المرفوع نحو رأسها لمحت صدر «عراي» وهو واقف مكانه، ويده ممدودة بالمناديل نحو السيارات. أدبرت وجهي إلى الباحة الأخرى حتى لا يراني، ولأنه لا يتوقع أبداً أن يجدي جالساً في سيارة مثل هذه فلم يتبته لي.

اشتريت هي علبة ماديب، ومدت إليه ورقة حمسة حنيها، وحين دس يده في حبيبه ليرد إليها البقية، أشارت بيدها إليه أن يحتفظ بها، فراح يدعو لها، والسيارة تتحرك إلى الأمام.

التصت إلى الخلف فوجدته لا يزال واقفاً يلوح للسيارة بيده حتى اختفينا في مدخل شارع «قصر العيني»، فضعنا من عينيه.

أرشدتها إلى الشوارع التي كان عليها أن تسلكها حتى تصل إلى أكشاك الكتب. وفي شارع «سور سعيد» سان لي «أبو عوف» واقفاً كسيا فور صدى، يمد يده للسيارات العابرة، ووجع الانتظار الذي لا يتوقف يسكن ملاعقه.

هممت أن أشير إلى البيوت المتداعية التي تتساند على بعضها كأعواد ذرة تقصر بها عاصفة، وأقول لها ها هي «تل العصار»، لكنني لم أجرو على النطق بحرف واحد، حتى يصعبي التي كنت قد مددتها نحوها، طورتها في حجل، وحمدت الله أنه لم تلاحظ دهاها وإيها السريع.

أبطأت لتركن سيارتها، لكنني طبت منها أن تتقدم إلى الأمام، وتترقب تحت الكوبري، أو في الساحة الواسعة المؤدية إلى محطة مترو «السيدة زينب» حيث يقف بائعو العاكهة خفف عربات الكدرو، التي كنسوا حولها ورشوا ماء، ليطردوا النباب الجائع.

من نافذة السيارة رأت الأكشاك المفتوحة، دات الأبواب المطوية في الأعلى تحت اللافئات التي تحمل أسماء قريية من النفس:

«مكتبة المعرفة»

«قتليل أم هاشم»

«العهد الجديد»

«الكتاب الذهبي»

وبانت كعوب الكتب المروصوة على الأرفف، وتلك المعرودة فوق طاولات مستطيلة، والأخرى التي تحط على الأرض وتضع أعمدة طويلة.

صرخت «أساء»:

- واو ...

قالت لها بدهشة وخفة مزوجة بغنج أنثوي لذيذ: رقصت له حلا جسدي. وكانت المرة الأولى التي يتحرك داخلي شيء من هذا العسا حيا لها.

فتحت الباب، واندفعت إلى الأمام وأنا اللاحقها حتى نجادنا. ودو قصد مني مست أطراف أصابع يدي أصابعها؛ فصحكت، وأطلت في نفسي مسعادة عامرة، لكن فجأة ماتت الصلابة والسعادة وقد كُـ شيء.

نابت «سميرة» عند أول كشك يلي محطة المترو، وتقدمت بحودا مستمرة، أكاد أسمع صوت زثيرها المكتوم، الذي سرعان ما صار عميمات مسموعة، ثم سؤالا متوقفا، وأظفارها معروسة في كتفي.

- من هذه؟

نزعت كتفي من أظفارها، وأجبتها:

- «أساء» زميلتي في الكلية.

مسحتها بغيط من أخمص قدميها حتى ناصيتها، وقالت بصوت فيه شيء من فحش:

- أساء أم سم؟

وشعرت بالإهانة؛ لأنها لم تراخ وجودي، وطعت عليها الغيرة؛ فأفقدتها بعض الكياسة المعروفة عنها، فقلت لها في عيظ:

- هذه بنت ناس.

مسحت الهواء بأنفها خفيفا، وكنت أظن أنها لن تفعل هذا أبدا، دملت بصوت أكثر فحشا:

يعني أنا ست كلب.

أومأت برأسي نائفا، ووجدتها فرصة أن أبرد خواطرها المحمومة:

إنت بنت ناس طيبين، والطيبون يكرمون ضيوفهم.

صمتت قليلا، وظننت أن الغضب قد زال عنها، لكنها انفجرت:

- حليها نفعك

وطوحت يدها في وجهي، ومصت تشير عذرا بعد الحفيص، وتنفث في ليونة ما قبل غياب الشمس سعارها، الذي راح يتطاير في وحوه العابرين.

دهت عني وبركتني شاردًا في وجهها المختلف عما ألتته. وجه آخر لأوه من قبل، وربما هو وجهها الحقيقي الذي كانت تخفيه عني بمهارة ناعمة تطارد روائها العابرين

(2)

حين عدت لقيني «عبد الشكور» فوجه لم أره من قبل كان العوس  
يصنع حول رأسه دوائر سوداء، وكانت شفتاه مرومتين في فسوسه،  
تجسسان كلامًا مدنيًا يريد أن يعلت.  
وقلت في نفسي عنه وعن ابنته. «بانت حقيقتكما».

أما هو فبدون مقدمات قال لي:  
- خذ هلا هيلك وامش.

اقتربت منه في حذر، وحاولت أن أجلس كعادتي إلى حوارته، لكنه  
أشار بيده ألا أفعل، فتجمدت مكاني، وأنا أداري رعدة سرت في  
أوصالي. فقد كانت له هيئة أو بقايا منها، رغم بحوله والجاعيد التي  
تملأ وجهه وعنقه، وأسناؤه المثرمة، وعيبيه الكليلتين اللتين لا تسعانه  
أن يرى أبعد من الجدار المقابل للرقاق، وركبته اللتين حائتا جسده.  
صمت برهة، ونظرت إلى ملاحه فوجدتها لا تزال صارمة فقلت  
له:

أمهلي حتى بعد عدا لأبحث عن سكن

سعل وبصق، لكنه لم يلبث أن غلب فوران صدره، والتقط بعض  
أنفاسه المبهرة، ورد في جفاء:  
- ليس لك عندنا إلا الليلة.

قلت في صوت خفيض

حاصر

وصعدت السلم المتهاالك مظاطئ الرأس، حتى وصلت إلى باب  
غرفتي، وما إن فتحت حتى شعرت بيد تحط على كتفي، وتدفعني إلى  
الداخل، كانت «سميرة».

عنتها على ما فعلت؛ فقلت في هدوء، كأنها عبر تلك التي قابلتي  
قبل ساعات عند أكشاك الكتب:

- عصب عني، هذا من غيري عليك وحيرتي

قالتها هكذا وكأنها قد جهرتها طيلة الساعات الفتنة كي تجعلني  
ألمس لها عذرًا

قلت لها وأنا أجلس على سريري في الكسار

عمومًا، هذا كلام فات أوانه، أنا سأرحل غدًا

صرت على صدرها

- ترحل! من قال هذا؟

- أبوك.

استمعت وردت:

هو زعلان على زعلي، وإن جعلتني أرى قسري عك

نظرت إليها في عيط، وسألتها:

- وكيف أجعلك ترصين؟



لم تضيق وقتاً اقترت مني، وأخذت وجهي بين كفيها، وقلنت  
نهم، وأنا عازف عن مبادلتها اللهفة والحرارة.

دفعني إلى الخلف وقالت في حق:

- أصححت بارداً.

تنهدت في ألم وقلت لها:

- كرامتي مجروحة، وذهنى شارداً.

- ما عاش من أهائك، ولا تشرد وأنا معك.

وسكتنا برهة فجاءنا صوت من نافذة مجاورة لامرأة تغنج، ورحا  
يتوسل إليها طالباً منها أن تقرب منه، ثم رت ضحكها فسمعنا صوته  
على جلد ساخن، وبعدها توجع وتنهدات وشهقات.

اشتعل جسدي، وراحت «سميرة» تلتصق بي، وترك يديّ تمرح  
في حسلها كيفما شاءتا، حتى صارت بين فحذيها، تلامس حريره،  
الحش، بيننا شمعي تطوفان نشقيها وجدها ثم تهبطان إلى صدرها

صممت أصوات الوجد اللديد الآتية من الخارج، وبدأت أصواتنا  
بحن مجروحة تعرف ساخن، وتوغلت يدي أكثر من أي وقت مضى  
فقمزت مني؛ لتسقط على الأرض، وهي تصرخ

- ماذا تفعل يا مجنون؟

سرت في جسدي برودة، قللت من رعني المحمومة، وفسد ما كنت  
أنا مقدماً عليه، أو صلح في الحقيقة، فقد كنت على وشك أن أفعل ما لا  
هروب منه، وما قد أئدم عليه بقية حياتي.

عاد إليّ وعيي، وتذكرت ما فعلته مع «أسماء» فقللت لها في تفرز

من يراك عند أكشاك الكتب وأنت تعرسين أطفالك في كفي، لا  
ألا الآن هنا وأنت مرسية تحت قدمي.

دمعت عينها وقالت:

- في الحالتين أنا أحبك.

فقلت لها في ضحر:

- إذا تعارض الحب مع الاحترام فليذهب الحب إلى الجحيم.

اقترب مني مرة أخرى، وأمسكت يدي وقالت:

لا تكن قاسياً.

وتنهت إلى أن الاحترام الذي أتحدث عنه قد ذهب مدأ مددت  
يدي في الحافلة وأمام المسجد، فانكملت، وانتابي صمت، لتتابع  
أدبي شبيجها، وأرى دموعها تلمع في ضوء الغرفة المسلط على رأسيها،

اقتربت منها، وريت على كتفها، وقلت لها:

لم يبق لي ما سوى ليلة، فلا أريد أن أرحل وأحر ما أراه ملك هو  
الدموع.

اكسني وجهها بالأمسى وقال في حزع

- ترحل؟!

أومأت برأسي وأجبتها:

- أموك طلب مني هذا

اترعت انتسامة حاطمة من أحرايتها وقالت

- كنت مضغلة، وطلبت منه هذا، وهو لا يرد لي طلب.

ومدت يدها وقبضت على يدي:

لا تخف، سأطلب منه أن يجعلك تبقى.

في الحقيقة لم أكن حائفاً، بعد أن عرفت طريقاً لالتقاط روقي بعد  
عن مملكة «عد الشكور»، وفقدت بعض حرصي على النقاء لها بعد  
ظهرت «أسماء» في حياتي، وصار طبعها بطارد صورة «سميرة» وبعد  
كل يوم حرراً معها، فتسقطها تحت حذار الرقاق، حتى وجدت نفسي  
أتساءل: هل كانت مشاعري حبال فتاة «تل العقارب» حتماً أم شعدها  
عائراً؟

ولاحظت هي شرودي، وأردت أن ألاحقها قبل أن سألني، وتدرج  
الكذب في إجابتي، فسألته أنا:

- كيف تتسللين إلى هنا؟

راورت عينيها قليلاً وأجابت:

إياك أن تعتقد أنني أعافى أبي وأمي

صمعتني إجابتها، فاستمررت عما تقصد، فرددت في صوح:

- أبي يعرف كل شيء.

- وإخوتك؟

إخوتي يسرقهم الشغل، ويعودون متعبين للسوم، ولا يدري أي  
مهم عن أحبه شيئاً

تمصحت وعدت لأسألهما

- تقولين لأبيك كل ما يجري بيننا.

ليس، لنضبط، يعرف أنني أحك، وفدت له إنيك محبي، أليس  
ذلك؟

صابتني مؤامراً، والإلحاح الذي ملأ مقلتيها، فتجاهلته، وأعدتها إلى  
مخري الحديث:

وماذا يعرف أيضاً؟

ردت في عبط:

- هل حسنت؟ أتعتقد أن أبي يعرف ما كنت تفعله بي منذ قليل؟!

- يعرف على الأقل أنك تصعدين إلى هنا

- هذا سطح يسا.

وأنا أسكن غرفة فيه أعزب وغريب ووحيد

أبي يثق بي

وهل أب حديده هذه الثقة؟

نمتت متألة وقالت:

- نعم.

صحكت من أعماق سوداء، وقلت في استهانة

- عرية.

فركت يدها السخنة في اليسرى، وحاولت أن تناديني الاستهانة.

ما العريب؟ أب لم تل شي إلا ما أعطته لك، وهو بسيط

- لكن ..

قاطعتني:

- لا تكمل، لا أنت ولا ألف مثلك يجعلونني أضعف، وأترد  
تأخذ ما ليس لك.

- ما ليس لي؟!

- الآن على الأقل

تذكرت ما كنت أفعله بها قبل قليل، وقلت لها متحديًا:

- ما أدخلته منك في عرف بلدنا تسيل له أنهار من دم.

ضجعت، ومصمصت شفتيها وقالت في ترم:

- هذا في بلدكم يا شاطر، أما هنا فما أعطيه لك هو القليل.

ونظرت إلى النافذة وسألني مستكبرة:

- أنسيت ما كنا نسمعه قبل قليل؟

وقامت من مكانها، وطوحت ذراعها في الهواء فوق رأسها فصعب  
ثلثي دائرة، وقالت:

- ها يرى الصغار آباءهم فوق أمهاتهم، ويسمعون أصوات  
نهار شههم، ويطارد الأولاد البنات تحت ظلام الحيطان، ويرى الكُمل الكُل  
من فتحات دورات المياه القدرة التي تتشارك فيها عائلات وعائلات  
ها لا حرمه لأحد، منا المسطول بالبانبجو، والمهيك بالفشل الكلوي  
وتليف الكبد... أنت جديد علينا، ولا تعرف كل شيء عنا.

قالت هذا في تأثر، لكنها أخفقت في أن تجعلني أحذب عليها،  
أو كنت من التلذذ بحيث لم أهنز، ولم أذل أي جهد حتى أطرده بدقة  
عاصمة من شفقة، سرعان ما دابت في الهواء.  
وحين أحدثت «سميرة» تخطو هدوء نحو الباب، شعرت أنها  
تسحب من قلبي

حريضة «الأهرام» على صفحة الوفيات، وعرفت عن أنقسط رزقي حين  
يجل اللس.

اطمأننت إلى سكتي، وإلى رزقي، ووجدت أن ساعتين كاملتين  
تتصلاني عن المغرب، فقلت أستعمل لوقت في محاولة أخرى نحو رزق  
ثابت وكريم

ركبت حافلة إلى «فصر العيسى» ونزلت عند محطة التي تبني  
مؤسسة «روز اليوسف» مباشرة، وعدت خطوات إلى لوحة الصبغة  
المهية. وما إن رأي موظف الأمن حتى هز رأسه وقال:

- أنت مرة أخرى؟

صانقي كلامه، الذي لا يمكن لإسناد دي مروءة أن يطبق به في وجه  
أحد، حتى لو كان شحاذاً سمحاً ومع هذا انتدعت إهنتي، وقررت أن  
أنعاصي عن أي شيء سيخبر به، وطلبت منه أن أضعه إلى قسم «شتون  
العلمين»، لكن وجهه تفرطح قليلاً بسامته صغراء، وقال

لا يوجد أحد. الآن هياك، آخر موظف فيهم يصرف عند الثانية  
ظهرًا.

أنديت إصرارًا على ألا أفتك حتى أدرك شيئًا، فقلت له وأنا أدوس  
على الحروف بأصابعي

- سأسأل في مكتب رئيس التحرير.

لكنه نحل طلي، وإهمك في تقليد دفتر طويل عريض يتنام أمامه،  
ثم هس في أذن رجل يقف إلى جانبه، وعاد يقول:

- انتظر قليلاً.

(3)

حين هبطت قبيل الظهر ذاهبًا إلى الجامعة قابلني «عبد الشكور»  
موجه بشوش تبدل حاله من الليل إلى النهار، وأدرك أن «سجبر»  
أوقت بما وعدتني به، وأيقنت أن بي في هذا الحي الناس أيامًا آخر  
كنت أريد أيامًا قلائل لأدبر حالي، وشردت طبخة الليل في الأحبي  
التي تعانقها عساي، والتي ليس مثلي أن يحلم الآن بأن يعطيتها، واستند  
بي الترحال ورأسي ملقى على الوسادة التالية، في حي «الناصرية»،  
أعبر شريط المترو إلى حي «المسيرة»، وقد أنزلت الحمل بما حمل وأعد  
البحث عن سكن قنلة الجامعة في حي «بين السرايات» أو عن يمين  
حيث حي «أبو قتادة».

حين وصلت مسحب المدرج بعيني بحثًا عن «أسماء» فلم أجدها  
اقتربت من صديقتها «علاء» وسألته عنها بلسان ملغثم، فقالت  
أندعتني أما متعة، وستمكث في البيت، وطلب مني أن أمر عليها  
بعد المحاضرة.

طأطأت رأسي قليلاً، وأندعت عيني عن مستوى نظرها وقلت لها  
- أبلغتها سلامي.

وخرجت من باب «كلية الآداب» حيث الباحة الوسيعة أمام القبة  
الحاسية، وجلست على مقعد حجري بين حشائش مسبوطة ومنساة،  
وورود مختلف ألوانها، وأشجار مصصصة في دقة، وبحل قصير. فتحت

ورفع سباعة الهاتف، وأدار القرص على أربعة أرقام، وسألني:

- ما اسمك؟

وردد اسمي في آذن من يسمعه على الناحية الأخرى، وذكر له طلبي، وصمت برهة، وهو يهر رأسه، وعيناه تمسحان رأسي ووجهي وصدري، ثم وصع السباعة في هدوء وقال:

- ليس هناك جديد.

خرجت صامتاً، وانعطفت يميناً في شارع «المتديان» حتى وصلت إلى «دار الهلال»، وهناك تركني موظف الأمن -الذي اعتاد رؤيتي- أوصعد إلى رئيس «قسم الأرشيف والمعلومات»، الذي قائلني نرحاب، وأمر بإحضار كوب من الشاي الثقيل، لكن انتهى اللقاء بكلام طيب وحسن استضافة، ولا شيء غير ذلك.

ورميت بعض كآتني تحت خطواتي، التي تقدمت نحو ميدان «السيدة زينب» حين انتظرت الحافلة التي ستقطع شارع «حسن الأكر» إلى «باب اللوق» و«ميدان التحرير» ومنه إلى «حي المهندسين».

ما إن لاح أمامي مسجد «الحامدية الشاذلية» حتى وجدت شبحاً من الظلام والنور، يتقدم ويعود، يفعل ما أفعله، ويتجسيم لس بعيداً عن ذاكرتي.

كان «حسونة»، وتظهر لي أكثر مهارة مني بكثير في التقاط رزقه من حبوب الخبز حين اقتربت منه في حذر، وقبل أن يتبه لي، وحدت نصبي أجمل منه، وأعطيه طهري وأدخل المسحذ مع المعرين مكثت طويلاً منصتاً إلى تلاوة القرآن الكريم.

كان القارئ حقيماً، يتقافز وتتصعح عروقه، وتكد عمامته تعارق رأسه، وهو يخرج صوتاً عذباً ندياً، ورأيتُه أما حين كنت أُنشد في الحافلة، وأنا هو حين يجلس أمامي، ودهي موزع بين الانتباه لما يتلوه، وما يفعله الذي قفر على رزقي في الخارج.

جاء الناس ودهوا عر مرة وأنا جالس مكاني، حتى قل الموحودون، وفرغ أغلب الكراسي، فقممت أحر ساقني، حتى صارت عيالي في عيني «حسونة»

اتسعت حدقاته، وقال متهمكاً:

أهلاً «رفعت» يه، مقالانك عقريه، أنا قرأتها جميعاً، ونعمت منها كل شيء، رينا يزيدك علماً، وينفع الناس بك. وقهقه، وصرب عمود الإنارة بكفه اليميني.

لم أُنسج لسحرينه، وتقدمت إليه في توافل، ووصعت يدي على كفه، وقلت له:

- لماذا غيرت العتة؟

نفخ في ألم وقال:

- أولاد الحرام لم يتركوا الأولاد الحلال شيئاً.

- بمعنى؟

أحد البهوات ألع عبي الشرطة، ولولا خفتي لأمسكوا بي.

- هربت؟

- لم يتركوا لي حلاً آخر.

تمت في سري:

- قطعت رزقي يا غراب العين.

نظر إليّ عميقًا، وسألني:

- هل قلت شيئًا؟

أجبت بكل هدوء:

لا

نظر في عمق قاعة العزاء التي بدت خالية، وقال:

- يمكننا أن نتصرف.

وصر ب جبينه بكمه وقال:

- نسيت أن أسألك عما إذا كنت تعرف المتوفى.

سكتُ برهة لأستجمع الإجابة، ثم نطقت:

- أب لصديق زميل لي بالكلية.

فهقه وقال في سخر:

- علاقة بعيدة حدًا، ومع هذا لا يصر، فيك الخير

ابتسمت في مرارة وقلت:

- لي نصيب أن أشوفك.

وقفنا في حفلة أبيه إلى وسط البلد، ووجدنا مقعدًا حاليًا تجاورون

عليه. ومع اردحام الطريق، ولدت فرصة لتبادل الحديث حول أشياء

كثيرة.

قال لي وهو يفتح:

- «سعد سلطة» يضيق علينا رزقنا.

نظرت إليه في إيمان وقلت بلا عناية:

- الرزق بالله يا أخي، من «سعد» هذا حتى يمنع رزقًا؟

سكت برهة ورد في قنوط:

- لا أستبعد أن له يدًا في طردي من عند جامع «عمر مكرم».

- الهذه الدرجة؟

- يعرف ضباطًا فاسدين.

تذكرت كيف أنه قطع رزقي وقلت له:

- ومن أدراك أنه لن يطارذك عند «الحامدية الشاذلية»؟

- لن يذهب ذهنه إلى هذه.

ضحكت، وضربت ركبتي بكفي، وقلت له:

- يعرف المكان.

اعتلا وجهه بغرغ، وسأل:

- كيف عرف؟

- رأيت أحد صبيانته هنا، كان يقف حلمك، تحت الشجرة، تعطيه

عتمتها، ويراقب ما تفعل.

لم أكن قد رأيت أحداً، لكنني أردت أن أخبره حتى لا يأتي الله  
التالية، ويقطع عيني. ولم أكن أكذب فـ «سعد» يعرف المكان بالمثل،  
ويُعبرني به، في تلميحات سحيقة طالما أوجع بها أدي ونفسي  
غرس أظفاره في المقعد الذي يسبقنا، ونظر إليّ وقال:

- هو يتقم منا بسبك.

- بسببي أنا؟

- طبعاً، أحد صبيانه أفهمني هذا.

- ماذا قال لك بالضبط؟

- أنت تريد الزواج من أختي «سميرة» التي يريد «سعد» روحه  
أو حتى جارية.

خطفست المحلات الثلاثة عيني فكتكت أتانعه بنصف أذن ونصف  
ذهن، لكن عبارته الأخيرة وخزني، ووجدت نفسي أقول له:

- الرواح قسمة وبصيب، وأجد من غير الملائم أن أأفلس هذا  
البطلجي على أختك.

انكمش في مكانه وقال:

- طبعاً، أنت غير، لكن هذه هي الحقيقة.

أدركت وقتها أن كل من في البيت بشارك في مؤامرة صامتة على  
شخصي الضعيف، ربما غرهم ما قلته لهم أول يوم جئت فيه إلى بينهم  
بأنني في يوم من الأيام سأصير شهيراً وثرياً، أو أن «عبد الشكور» اعتقد  
أن مثلي هو الذي يلائم ابنته التي يفتخر بأنه قد رباهها بطريقة مختلفة عن  
كل بنات الحي، وكان دوماً يقول:

- أخرجنها من العانة بدري، وجعلتها تباع الورد، لتصير وردة

ظل «حسونة» يثرثر وأنا أتانعه بنصف وعي حتى وصل إلى ميدان  
«أبو الريش»، وغطست رأسانا في أضواء شجيرة تسعث من اللغات  
المشرعة فوق محطة المترو، وتناهى إلى آذاننا اصطكاك أبواب أكشاك  
الكنس، ورمجة عجلات الحافلات التي تستعد للمكوث مكانها حتى  
الصباح، وقرات الدومينو والطاوله على المقاهي، ونداء الحائقي وعمال  
المسقط على العابرين كي يلحقوا مكاناً لتناول وجبة دسمة ساخنة  
سحب بعض الهواء العابر ليملاً أنه بقوة، ثم قال:

تعال أعرمك على أكلة كوارع.

وحين وضعت أول لقمة في فمي أيقنت أن العرومة لم تكن حاضرة  
لوجه الله أو الجيرة أو حتى بداية صداقة أو علاقة أعمق، إنما كان  
«حسونة» يريد أن يفهم أكثر، كيف عرفت أن عين «سعد» قد وصلت  
إلى مسجد «الحامدية الشاذلية».

كان يلح في إجابتي عن أسئلته، وكنت أراوع على قدر استطاعتي،  
حتى وجدته يقول لي قبل أن أضغ آخر لقمة في فمي:

- أنا رهقت من هذه الشغلة، زبائن هذه المائم متكررون، وبعضهم  
يظنر إليّ يتأفف، وبعضهم من يترك بيدي معلقة في هواء ويمضي، وهناك  
من يدكرني بأنه قد دفع لي قبل أيام أو حتى أسابيع قليلة، وهشي كأنني  
دبابة سمجة

ثم ذرفت عيناه دموعاً بللت رموشه وقال:

رأيت سبارة «أسماء» واقفة في باحة الجامعة فعرفت أنها هـا. صارت  
ساقاي أحف، وقطعت الطريق إلى قاعة الدرس في ثلاث دقائق.  
ونلت عيوننا، وأشرق وجهها بانسامة راققة.

اقتربت منها، وأطلقت في صوتي كل نغومة وحرارة ممكنة، وقت  
لها:

اقتلناك بالأمس.

ومددت يدي إليها، وحرصت على أن أصعق قلباً على أمامها  
الطرية، فاهر وجهها خجلاً، وقالت:

- دور برد بسيط وراح.

ضحكت وقلت:

- سلامتك

ودخل الأستاذ إلى المدرج قطع حديثاً، لكنني جلست إلى حوارها،  
وتلامست فحدانا، فتمرت دونها إلى، ومست أصابعي أصابعها،  
وحدثت نفسي أكتب لها في كراسها المفتوحة على صمغتين فارغتين.  
- لدي إحساس عميق بأن حكاية جميلة تولد يساً، وقد تأسري  
تفاصيلها إلى الأبد.

- جريت ذات مرة وراء رجل أعمال كبير، فصريني حراسه  
أدعوا أنني، وكسروا ساعدي، وجريت في أخرى وراء وزير فأحد،  
إلى القسم وتم حجزني ثلاث ليال لا أسأها، وهم يعتقدون أنني -  
أنوي به شراً، ولما أيقوا أنني شحاذ من نوع آخر تركوني لحال سبيل  
شعطت أحر منعقة في طبق الشر به الساحة وقلت له:

- لكك لا تعرف شعلة غير هـا، وأتوك يريدك أن تنفي هكدا، كما  
لكل باب ورق مشقة

شرد قلباً، ولمعت دموعه في هالات الضوء المسعنة من اللعبة  
تواجهه، وقال:

الكلام في شرك، وقعت في عرام ست جميلة، واشترطت علي:  
أردت الزواج منها أن أبحث عن شعلة شريفة، قلت لها إنني لا أسرق  
أحدًا، إنما أحد بعض حقني عن سر قوي، لكسي في مطرها مجرد شحاذ  
وما الذي يمكنك أن تشتعله الآن؟

ضحك وهز رأسه وقال في أنني:

- لا أعرف.



كنت أكذب على نفسي، محاولاً أن أهرب من «سميرة» التي هامت قلبي وينصر منها عقلي، وألوذ بعالم تخملي في رحاب «أسماء»، رغم داخلي بقيتاً بأد مثلي ليس مثلها، لكن بها يمكن أن أقفر درجات في سم ياخذني إلى هدفي، حتى لو كانت خطواتي إلى أعلى مددوعة بشققتها هم علي، أو تعاطفها مع فتى أسمر حسن التقاسيم، جاء من أقصى الودد حالي الوفاص، ويكافح هنا كي يجد لقدميه موضعاً في الرحام. وأحياناً كنت أسأل نفسي:

- ولم لا؟ أليس بمقدور الحب أن يصنع المعجزات؟

وكنت ها أستعمل «سميرة» رهاناً على أن يوسع «أسماء» أن تتعلم بي، وتفتح أمامي الطريق فأنا الذي يحلم أن يصير أكبر فيلسوف يكتب بالعربية، واقع في غرام بائعة ورد على كورنيش النيل.

كنت أحياناً أرتبها وفق المنطق السوري، فالفارق بيني وبين «سميرة» في العلم يماثل الفارق بيني وبين «أسماء» في المال، ولأن العلم أهم عندي من المال، فتضحيتي بحب «سميرة» أكبر بكثير من تضحية «أسماء» بحيي.

لم تكتب لي «أسماء» شيئاً رداً على العبارة التي خطبتها فوق سطر واحد من كراسمتها، لكنها اتسمت، وهزت شعرها المنساب على كتفيها، لتنداري احرار خلدتها من جديد.

وبعد المحاضرة لسعنتني يسؤال لم أتوقعه:

- هل تعمل إلى جانب الدراسة؟

تلعثمت في الإجابة، وتذكرت ما كنت فيه بالأمس فقلت لها:

- أحاول العمل في الصحافة.

- تحاول؟

- اسع يا عبد وأنا معك.

ضربت الهواء بيدها وقالت:

هذا حباله طويلة، لك عندي عمل محترم، ومن الغد إن أردت.

رقص داخلي الأمل، وصرخت:

- يدي على كتفك.

- موظف علاقات عامة في إحدى شركات أبي.

سكت برهة وقلت:

- لكن هذا بعيد عن الفلسفة.

ضحكت، وقالت:

- لكنه قريب من الصحافة.

كنت فرحاً، لكنني داريت لهفتي، وأبدت بعض تمنع مصطنع، ونطقنت بها لا أود لها أن تستجيب له:

- أريد فرصة للتفكير.

لكنها حققت ما أهدو إليه:

- فكر وأنت على رأس عملك .. جرب ولن تخسر شيئاً.

وكنت قد قررت منذ أن فتحت أمامي هذا الباب الجديد الطيف أن أصرق منه دون تردد. وقبل أن أودعها عرمت على أن أجمع أسبالي

البالية، وأحرج من حي «تل العقارب» في هدوء، وأحمر أيامه التعب من ذاكرتي.

(5)

كيف أهرب؟ ...

سألت نفسي وأنا أقل خطوات وثيدة فوق كوسري الجامعة، واحترق بين سليلين، إما أن أصرح «عدد الشكور» بأبي قد وجدت سكناً قريباً من مكان دراستي، ولابد أن أعدد، وإما أن أخرج ليلاً دون أن يشعر بي أحد، عريب فابلته، وعريب أقارقه.

لكن قبل أن ينتهي الطريق بحث قديمي، برقب في رأسي فكرة أكثر واقعية، سأحرق «عدد الشكور» أنني سأعود إلى «الكشج» لزيارة أهلي، وأمكث معهم أياماً، لكن ما أملكه من ملابس قليلة وكتب كثيرة، يصعب أن تحويه حقيبة واحدة، ولذا يتعدى عن أن أترك المكان في مرة واحدة

لهذا عدت في اليوم التالي لأبحث عن سكن في حي «بين نسر ايات»، ودلني سمسار على غرفة معرولة نوحه شقة صيقة، تشكلاان معاً طابقاً من بيت ضيق خفيض

سرت معه في هدوء، ودق كعب عصاه على سلم حجري وأنا خلفه، حتى وقف على باب الغرفة وقال:

- مسكونة، لا، واستمر بعد ثلاثة أيام، كان يسكنه طالب دراسات عليا مثلك، وحصل على الماجستير في المحاسبة، وبعده عقد عمل في الخليج .. كل هذا تم في أسبوع واحد.

ونظر إلى جيبي مبتسماً وقال:

- غرفة مبروكة، ما سكنها أحد إلا أكرمه الله.

أخرجت له العربون الذي انتقنا عليه وانصرفت، وأنا أقول لنفسي

- ثلاثة أيام أقصها في «تل العقارب» بهدوء، حتى لو صمت فيها

عن الكلام، ثم أعطيها ظهري إلى الأبد

ومررت بالجامعة وقابلت «أسماء» وأحترتها بأنني فكرت وقررت

الموافقة على العمل بشركة أبيها من أول الشهر، فصحكت وقالت:

- يعني بعد ثلاثة أيام.

ونتمت في ارتياح:

- عمل وسكن بعد أقل من اثنتين وسبعين ساعة، يا للمحظ حين

يتسم!

ومرق طيف «سميرة» أمامي، وشعرت بنقرة في قلبي. لكنني تذكرت

المثل الذي كانت أمي تردده دوماً: «ما يقطع إلا يوصل» وعلوت على

رغتي، ودون أن أشعر ركلت الهواء بقدمي، حتى إن «أسماء» تابعت ما

فعلت مندهشة، واستعرفت في ضحكة استعرضت فيها أمامي، دون

قصد، صغين من اللؤلؤ وراء شففتها المكتزتين الشهيتين.

وسكنت فجأة وقالت لي:

- عزي «علاء».

- في من؟

- خالها، مات أمس.

وبدت الدنيا مقلبة عليّ بصورة لم أعهد لها من قبل، وشعرت أن  
الركلة التي شرخت بها الهواء، كانت موجهة إلى النحس الذي لازمني  
طويلاً.

لكن لم تمض سوى ساعات قليلة حتى شعرت أن سوء الحظ يتبعني  
كطلي. فقد حدث ما لم يدر أبداً بخلدي. وكما جاء، ذهب عني كل شيء.

كان السمسار قد طلب أحرقه الشهر الأول مقدماً، وشهر مثلها على سائر التامين، إضافة إلى ما سيتقاضاه هو، ولم يكن هذا متوافراً الذي، ولذا كان لا بد من أن أذهب إلى مسجد «الحامدية الشاذلية».

كان الوقت قد تأخر فأثرت أن أمكث في المكتبة حتى أداها المعرب ثم ألتفت إلى رفيقي حين وصلت لم يكن في قاعة عراء الرجال سوى نفر قليل، لكن قاعة النساء كانت مكتظة، ويتناثر منها كلام للسلاوي، وبكاء ونشيج.

وقعت تحت الشجرة المشدبة، وتركتها ترمي ظلها على جسدي. فصرت شبهة، وأرسلت عينيَّ محمّلين في الحائسين بالداخل، كان من بينهم رجل قصير القامة، ملاحه ليست عربية عتي. عصرت ذهبي وتذكرت أبي أرى صورته في صفحات الاقتصاد، ومكتوباً تحتها «رئيس جمعية المستثمرين».

كان أول الخارجين كعادة رجال المال أو المشغلين به، على عجلة من أمرهم دوماً، فجزيت نحوه وقلت له:

جهودكم يا أفندم في سبيل تنمية اقتصاد بلدنا غداً عن الشمس، ما فعلونه يجعل لكم ديناً في عتق كل مصري أن يشكركم من كل أعماقه، ويدعو لكم بموفاة الصحة، وطول العمر والرفعة.

توقف ونظر في عيني وابتسم وقال:

- هل أنت تعرفني؟

ملائت وجهي بدفقة تجيل مصطعة، وطأطأت رأسي قليلاً، وأجبته:

- ومن لا يعرف محمود بيه الملواني.

رئيت على كفي، وقرأت عيني ما أريد أن أطلسه، ورأى يدي التي تتألم للانسباط نحو صدره، أو استعداد في لحظة ما وقع له مع أمثالي أمام مساجد أخرى، ودس يده في جيبه، وأخرج ورقة بعشرة جيهات كاملة وأعطاهالي، ومضى.

قلت لنفسي ستكون ليلة مشمرة، أكثر من كل الديالي، وسأحصل فيها ما أدفع به سكاني وأسد به رمقي حتى يهية الشهر وعزمت على أن تكون المرة الأخيرة إن تحقق لي هذا، فقد تسلم الوطيفة الحديدة لا ينبغي القدوم إلى هنا مهما كانت الظروف.

وتوالت الأعطيات، وأب أنقذتم وتأخر في جمعه، وأدس في حبيبي ما أجد بقععي فعلاً بأب الليلة الأخيرة، إلى أن وقع ما أفسد كل شيء.

كنت أخرجي بين سيفين الخارجين من قاعة الحراء، أأديهم بأسهمهم، وأفرط في مديحهم، ثم أمد يدي، حين كنت فتاة، مدفوعة في السواد، تقف إلى جانب اللاقنة لعالية المكتوب عليها اسم المتوفى تراقني لم أتبس ملامحها جيداً، فقد كانت معطاة بظلال كثمة بصعها بحراف المصاح إلى اليسار قليلاً، وربما لأنها كانت تتعمد مداراة وجهي عن رمي بصري الزائف.

دميت جسدي من الحافلة، ثقيلًا كجبل، وتعيّسًا كيامة تقف عذرة  
عن إيقاد فراخها من محالب نسر جائع.  
ما إن انتعشت بسرا، وظهري إلى الكوبري الذي يتر تحت عجلات  
السيارات المارقة، حتى وجدت أممي «عاطف» يتأرجح كعمود حيران  
في ربح عاتية.

اقترب مني وقال بشفتين مقددتين:  
- جئت في وقتك يا أستاذ.

ولم يدرك أنه هو الذي جاءني في الوقت المناسب، فقد كنت في ميسس  
الحاجة إلى أحد أتحدث إليه. لن أبوح له طبعًا بحقيقة ما أنا فيه، لكن  
مآثره معه، أو أنصت إلى ثرثرته، ففي الخاليس يتسرب بعض الموم  
ولو مؤقتًا.

أشار بيده نحو عمق الشارع، وحرك شفتيه وحاجبيه وأنفه، وهز  
رأسه يمة ويسرة، محاولاً أن يغتصب أي انتسامة من نفسه المشروخة  
عرفت مقصده، وسرت إلى جنبه حتى بلغنا حي «الناصرية»، حيث  
الشوارع الفارقة في الهجة الرخيصة.

لم يجد كلانا أي شهية، فمررنا بمسقط «بحّة» دون أن نلتفت إليه،  
وجلسا على أول مقهى قابلنا بعده كنا شاردين، كل في همه، فلم نتابع  
جيدًا ما يجري على الشاشة الزرقاء.

وحين وجدت سيدة فارعة الطول تخرج من قاعة النساء، دقت في  
وجهها، فعرقتها، إنها الكاتبة الشهيرة صاحبة العمود اليومي في أمة  
جريدة في بلدنا، والتي حصصت أغلبه للدفاع عن الفقراء، وحدثنا  
فرصة، فهممت بحوها، وباديتها باسمها، وأنا أردد بعض عناوين  
مقالاتها الأخيرة، ومددت يدي في اتجاهها، فارتفع بصري، وحط  
على وجه الفتاة الواقعة في صمت، والتي كانت قد انتعشت عن اللاتنة  
خطوتين، فبات لي، فإذا ساقني تصرب أختها، والأرض تميد من تحتي،  
مبتلعة قلبي الذي ارتج وكاد يفارق صدري.

كانت «علا»..

جريت إلى الأمام وسمعتها تناديني:

- «رفعت»..

يا لمصيتي! أي رفعة لم تمس في هذه اللحظة أن تنشق الأرض  
وتتلعه، ويكون سببًا منسبًا. شعرت بأن اسمي عاله على، ولا علاقة لي  
به، وأن كل شيء صاع من يدي، «أساء» والعمل، وورثها دراستي، فأني  
وجه يمكن أن أقابل من ظنت بي خيرًا.

جريت حتى انقطع أنفاسي، وحقت دموعي بعد طول انهيارها،  
لأجد نفسي على أول شارع «البطل أحمد عبد العزيز»، وأضواء مطاعمه  
وحوائيه الفاخرة تشظى في عيني، وتصطرب ألوانها، لكنها لا تقدر  
على أن تعطي أي هجة للون واحد ملأ نفسي، إنه السواد.

سواد ما أنا فيه، وسواد ما ينتظري. الآتي والآتي معًا، مثل حدثائي  
الذي كنت قد اجتهدت عند الطهيرة كي أجمعه يلمع قليلًا، ربما يسقط  
عليه بصر «أسماء» الأنيقة.



سقط وفي يده مطواة قرن غزال، لم تسعفه في الدفاع عن نفسه؛ لأن غريمه، كما بدا لنا، قد فاجأه بتلك الضربة المهيبة.

وتجمع الناس حول «سعد» وهو يغيب إلى الأبد، وأينا جميعاً صبية بشباب رثة وشعور مجمدة ملددة من حرط القدارة، يخرجون من النور المظلم الذي يمتد تحت محطة المترو، ويتشرون في المكان. كان بينهم فتى يمد يده إلى يد فتاة، ويقتربان من الجمع في حذر.

نظرت إليه ملياً، معرفته، هو «صلاح» وهي «فانس». وصرخ ولد من بين الخارجين من الشق كان قد اندس وسط الحلقة التي ترايد عدد الذين يصنعونها:

- «سعد» مات يا «صلاح» ... انتقمتم لشر فك، مات خلاص.

وما إن سمعه الفتى الذي يدايه حتى أخذ فتاته وجرباً سريعاً في الاتجاه المصاد. وكان مسلم المحطة الأقرب إليهما، فصعداه سريعاً، وبان جسدهما يرفرفان في بجة الضوء العلوية، ويلمعها الظلام.

## ( 8 )

حكى بعض الخارجين من الشق ما جرى، وعرف أهل حي «تل العمارب» كل شيء. بأن لهم دس الذي مات، وصقوا عليه وهو عاجز عن مسح الصاق الذي ملأ وجهه، وصيباه اللبن أتى بعضهم حرياً، وقصوا على وجوههم حري، وراحوا يسلمون في هدوء إلى الوراء، ثم غاب بعضهم في الطريق المؤدي إلى حي «الحيارة»، وبعضهم تراجع وانقلب نحو عمق شارعي «بور سعيد» و«السد».

كسرت الصمت زغرودة آتية من نافذة مضاءة معلقة في بيت مرتفع قليلاً، انتقلت إليها عبون الواقفين، ثم تبعها أخرى رفيعة وطويلة، وتوالت الزغاريد حتى غطت كل البيوت.

سريعاً انتهى كل شيء، فقد عرفت الشرطة من مات، ومن قتله، وعرف الناس المكان الذي دسوا فيه حته «سعد» يتولى الدود أمرها.

رأيت «سميرة» نشق الزحام، حتى وقعت إلى حامي على رأس حن  
«سعد»، كان مسلح العيين، ويحيط في إحداهما شعاع قادم من هناك.  
فدلت بحجة، أو هكذا تصورهما الواقفون حوله، مستعدين كل ميراث  
الخوف الذي لا يزال غصًا.

أحسست بأناملها تتمدد بين أنامل، وقصت على يدي، دون أن  
براها أحد في هذا الزحام. داست على أصابعي بطريقة داب معرى،  
وكأنها تقول: زالت العقبة التي كانت يسا، وقلت في نفسي: ماذا لو  
عرفت ما جرى لي عند المسجد؟ ربما ونهنا لا نكتفي بالصعط على  
أصابع يدي، إنما أصابع قدمي أيضًا، وربما التصقت بي بطريقة تحطف  
أنصار الواقفين من فوق جثة القتيل لتذهب إليا، وربما قبلي دون أن  
تحشى أحدًا ولا شيئًا.

انصرفنا مع المصرفين، أب و«عاطف» وسارت «سميرة» يسا  
تراقص خطواتها اعتدالة، وهي تتعمد أن تمس أناملها أنامل، حتى  
تلاصقت كثف بقوة حين دخلنا إلى الرقاق الضيق المقصص بعشة  
المحمر الوليد، يملأ أذنا صوب عم «حليل» وهو يقول في ثقة تامة من  
بين أصابعه البالية:

قادر على كل شيء

كان «عبد الشكور» لا يزال مسهران، وقد اتسع وجهه من العرجة  
حتى ظننته قد تبدل، أو صغر عشر سنين على الأقل.

كاد يأخذني في حضنته، وهو يقول:

- لا بد أنك جوعان.

هززت رأسي نافيًا، ونظرت إلى «عاطف» وقلت:

- شعبان.

ابتسم، كما لم يتسم من قبل، وقال:

- عمومًا الغداء ينتظرك، محمر ومشمر، وما لذ وطاب.

ضحكت وتساءلت متدهشًا:

- وما المناسبة؟

طوح يده في الهواء:

وهل نحتاج إلى ماسة كي نعزمك أنت اسأ، ألم أقل لك هذا  
مرارًا؟

تأملت وقلت:

- اعذرفي يا عم، لا بد من النوم.

ابتسم وقال:

- نم قري العين، غريمك راح، وطريقك اتسع.

لم أعلق ودعيت قدمي على لسلم، حتى وصلت إلى عرقي المعلقة  
فوق السطح، فتحت الباب، وألقيت جسدي على السرير، دون أن  
أخلع شيئًا، حتى حدثاتي.



لم أشعر بالوقت، واستيقظت على دقات قوية على الباب. قمت أمرت  
عينني وأثناءه، فوجدت «عراري» يقف ويجذبني من يدي وهو يقول  
- اليوم إجازة بمناسبة من راح بلا عودة، وهناك وليمة تنتظرك.

لم يكن لدي أي شهية للطعام، فعدت لأجلس على طرف سريرى،  
ودخل هو خلفي، وحذني من يدي، وقال:

- أبي أمرى ألا أعود إلا بك

وملا عينيه بالنسامة عابرة، ورطب شفته قليلاً وقال:

- لا بد أن تأكل من طيبخ «سميرة».

وظلست منه أن يمهلني حتى أذهب إلى الحمام، لأقصى حاجتي  
وأغسل وجهي، وأعود فوقه وقال وهو يتخطو إلى الأمام:

- سأنتظرك على السطح

ثم وهو يمضي نحو السلم:

- أو سأنتظرك تحت.

وقبل أن يقطس رأسه في المنحنى الضيق المعتم صرخ:

- إن لم نأت في خلال عشر دقائق فساعدوا إليك، لكن هذه المرة  
بالعصا.

دفنت رأسي في دورة المياه الصيقة القادرة، وأنا أسد أنفي من الرائحة  
العفنة. كان الهواء يصفر في الخارج، ويمر من ثقب حائط الصمغ،  
ويصرر محددي وكنتي، يبيع ثم يبدأ ويعود ليبيع من جديد.

في هدوئه تنأهى إلى سمعي ما يدور بين امرأتين في البيت المجاور  
كان الصوت يصعد من أسفل إلى أعلى، لكنه بدا واصباً بالنسبة لي، على  
الأقل حين كانت الريح تسكن قليلاً.

قالت الأولى للثانية.

- غار «سعد» في شين داهية

ردت عليها:

أخذ الشر وراح.

وسادت لحظة صمت بينهما، كسرتما الأولى:

- أتدرين ماذا قال عن بنت «عبد الشكور»؟

سمعت ضحكة من الثانية، ثم قالت:

- تسلسل إلى بيتهم بالأمس في غفلة من أبيها، وصعد إليها وهي تنظف

غرف إخوتها، وغدرها ثم فصع كل شيء على المقهى وهو سكران

سمعت الثانية تنهذه في حرقه وتقول:

- رينا يستر على ولاياتنا.

واسحب باب، واصطكت نافذة، وعاد الصمت بينهما، لكن الريح  
عوت من جديد، وقاومتني وأنا أفتح باب الحمام، حتى كدت أسقط  
على طهيري، ولم تركني سوى بخدش في راحة يدي، صغره رأس مسمار  
صغير صدى، اندفع بقوة من اندفاع باب الصفيح، الذي كان يرتج،  
حتى ظننته سيطر بي إلى فوق سطح الخيران.

على طبلية الغداء لاقيت ما لم ألاق في هذا البيت منذ أن حللت به.  
كان الجميع يتنافسون في منحي ابتساماتهم وخبزهم، وكانت من نصيبي  
أكبر قطعة لحم صال.

تغيروا بين عشية وضحاها، ورد «عبد الشكور» على الحيرة التي  
ملأت عبيّ بقوله

- كان المجموع مجملنا جميعًا نتصرف على غير طبيعتنا.

أما «سميرة» فكانت تلبو منكسرة دون أن تفقد الكثير من هائنها.  
وداحت ترميسي سطران خاطفة من وراء ظهورهم، وإن كتب قد  
شعرت أحيانًا أنهم يتلطفون لها لكن يضربون عنها صفحًا.

ونجست لو وجدت فرصة لاستفهم منها عما سمعته من جارتها،  
لكن هذا لم يتحقق لي، وأنجس داخل السؤل.

بعد الغداء أصر «أبو عوف» أن يعزمني على المقهى، وقال:

- نشرب الشاي هناك.

ولما فارقتنا أباه، همس في أذني.

- معي قطعة خشيش معتبرة.

لكنني أبيت أن يحدث هذا في المقهى، فقال:

- لا تخف، هذا يحدث طول الوقت.

اغتصبت ضحكة من وسط كآبتي، وقلت:

- يمكن أن تقع الطوبة في المعطوية.

رنت حنجرتي بضحكة عفوية، ثم قال:

- مشهور الليلة مع الدخان الأزرق.

دخلنا المقهى، وعلى كرسي من الخشب، جلست مجددًا المسبار  
الذي لمحت في حبه حتى لا يبرق بظاني، ووليت وجهي شطر أكشاك  
الكب، والذين يتقاطرون عليها بحث عن معرفة. بدت لي هي الشيء  
الوحيد المبهج وسط هذا البؤس.

طلت شايًا أسود وشيشه، وجلست أدخن شردًا عن «أبو عوف»  
الذي كان يشعل أغلب الوقت مشاكسة بعض شباب يحتفون حول  
الورق. شعرت بأن المقعد الذي أحلست عليه يعرض أكثر في هذه  
الأرض، ويأخذ معه أحلامي إلى أسفل.

نعم، هذا المكان مألوف أكثر، ليس للمعاملة التي لقيتها في بيت  
«عبد الشكور» قبل قليل، إنما لأن شيئًا من أسباب الوصال مع عالمي  
غرب النيل، حيث الجامعة، قد انقطع.

«هل يوسعي أن أريها وجهي بعد ليوم؟». سألت نفسي، وأبا أمعن  
النظر في وجه «أساء» الذي كان يرسم أمامي في الفراغ

رأيتها تمشي نحو المكتبات لصعيرة، كما مشيت ذات يوم قريب،  
ورأنتني أجثم خلفها حتى ألتق بها، وأصبعي تمس أصابعها.

كاد صوتي ينادي «أساء» «أساء»، لكنني بلعته مع  
الدخان الأسود، ثم نفثت كل شيء في وجه الريح، التي عادت ترعجو،  
ونكس أمامها ورقًا وقش، ثم ترفع بعضه ليدور في الفضاء القريب،  
ويصنع أمام ناظري دوامات مزعجة، تحجب الرؤية.

اجتاححتني رغبة في السوم من جديد، فقمعت ثقيل النفس من كثرة الطعام الذي تصارع من أجل هضمه، وثقيل الصدر من الدخان الذي احبس فيه. دخلت الرقاق، وأنا أرفع بطلاي من بركة ماء قدر، وأهمل قدمي في حذر فوق قوالب الطوب الأحمر التي وضعها الناس لتعيهم على العبور البطيء.

كانت قبلولة مختلفة، ذهب النشاق وحل الأرق، وشردت في همومي السوداء، ولم أجد مهرّباً منها سوى في كتاب، التقطته من الكومة الراقدة إلى حانب الدولاب، وحاولت أن أعرق فيه لكن كل شيء كان يقتحمني بين السطور، وجه «أسماء»، وطلال «علاء» وهي تنادي عند المسجد، وقاعة المحاضرات، وكوبري الجامعة، وأقارب القرية الذين يراهنون على فشلي في صمت.

رمت الكتاب إلى جانبي، ودفت رأسي تحت الوسادة، وبللتها بدموع مساحة عزيزة بكيت كما لم أبك من قبل، وعصصت طرف اللحاف حتى لا يخرج صوت شيعي من الوافد الصيقة، ويفضح ضعفي وفشلي.

أراحني بكائي قليلاً، وتحاللت على النوم لكنه لم يأت، وتابعت الطلام وهو يسرق من عيني كل الأشياء، هنا في العرفة، أو على سطوح الجيران.

كان المذياع ملقى تحت الطرف البعيد من الوسادة، ففتحته، وأدرت المؤشر متجاوزاً الكلام والوشيش حتى هلت الألحان الشعبية، فركته، وبالعراة، كانت «أم كلثوم» تشدو بأعنية لم أسمعها في حياتي سوى مرة واحدة من قبل:

«يا طول عنابي واشتيافي

ما بين يمدادك والتلاقي

ياما غالب الشوق وشكيت

من طول غيابك عن عيني

أقول لقلبي وليه الشوق

مادامح يعطف ويحيني

أصبر مع الأيام تتحقق الأحلام

وتشوف حبيب الروح جاني

وجاد بقسريه وهنائي

ساعتها أنسى ليالي النوح

وأخاف وقتي يروح مني

من غير ما أقول له ع اللي قاسيت

أيام ما كان غايب عني».

كانت تعيد المقاطع وأن أكررها معها، وصوتي يدور حولي، ويملا أذني أسى وعربة، وأبأ أوزع الكلمات المشحونة بلوحج على طموحي الذي يترنح، ووجه «أسماء» الذي يهرب مني، وجسد «سميرة» الذي يحضر، فيتحرك داخلي ما يريد أن يفسد عبطة الروح بالألم، لكن روحي تغلب وتعود لتعانق الموسيقى الباكية.

وطرقت الباب يد قوية كادت تخلعه، قمت إلى قابس الكهرباء فأعدت  
النور الأشياء التي سرقتها الظلام. فتحت فوجدت «أبو عوف» وفي  
يده كيس أسود ما إن جلس حتى جاء «عزوز» ومعه آتية من الفجار.  
وطلبا مني أن أفرش أي شيء على الأرض. مصصت شعبي وقلت  
لهما:

- وهل هناك شيء في بيتكم هذا؟

فنظر «أبو عوف» إلى اللحاف، وجذبه وهو يقول.

- هذا يكفي.

وفرشه وحلستنا عليه، وعى الأرض إلى حوارنا وصعوبة المختار،  
وأخرج من الكيس فحمًا، ورجاجة صعبة مملوءة بالكبر وسين، فقصها  
عليه، وأشعل النار. ثم أخرج حجرة مملوءة بماء نظيف، وباكو معسل  
«سلوم» كبيرًا، والورقة الملقوف فيها قطعة الحشيش التي كان قد  
عرصها عليّ قبل ساعات قليلة، وراى على ذلك بإحراج ثلاث حاجبات  
«براندي»، ونظر إليّ وقال:

- سأنسبك همومك.

وقهقه «عزوز» وقال.

- بل سينسى اسمه.

وكان هذا هو المراد. سحبت من الوصية القصيرة نصًا عميقًا، إلى  
درجة أن «أبو عوف»، نظر إليّ باستغراب، وقال:

- يقول لك فلسفة، مع إنه حشاش من ظهر حشاش.

ورّد «عزازي»:

هي فعلاً فلسفة، لكن من نوع ثاني، لا يُدرّس في الجامعة أبدًا  
ورغم أن رأسي بدأ يتقل لكس كان جرم من مخي لا ير ل يقطًا،  
فتكرت فيما قاله، وقلبت في نفسي: «إنها فلسفة العباب، الهروب،  
اللامبالاة، الانحار البطيء الذي يسدّ طريقه عن طيب خاطر من  
فقدان الأمل».

وصيًا ما في الرجالات وأعطياني، فكنت أسحب الأنف من  
الحوزة، وأعب الجرعات من الكأس، حتى شعرت بأن رأسي أصبح  
حل المقطم، وصاعت فيه معالم الأشياء، فسقطت مكاني

فتحت عيني على صوت ارتطام شيء بالأرض، فوجدت نفسي على السرير في حضن «سميرة»، وباب الغرفة ونوافذها مغلقة بإحكام، لكن العتمة الرائقة لم تحل دون أن أراها عارية. وحين تحسست جسدي وجدته عارياً أيضاً.

قمت مفزوعاً، وكانت هي يقطانة، هكذا بدت لي، وقلت لها في وجل:

- ما الذي جرى؟

قطبت جبينها وقالت في ثبات:

- فعلت ما حاولت أن أمنعك عنه، لكنك كنت عازماً عليه.

نظرت إليها باستنكار وسألتها في غيظ:

- وما هو؟

أن يقع بيننا ما لا ينبغي أن يكون إلا بين زوج وزوجته.

ثم انتفضت فجأة كأن ثعباناً قد لدغها، وأمسكت بكففي، وصرخت:

- يا مصيبي! ماذا أقول لأهلي؟!

وقفت عارياً على أرضية الغرفة، ملفوفاً بعتمة لا تمتعها من أن ترى مني ما لم أريد لها أن تراه.

ووجدتها تحولت فجأة إلى نمره شرسة، وقبضت على يدي، وأخذتها إلى شيء مبطل بين فخذيه، وقالت:

- ضيعت شرقي، الله يضيعك.

جريت إلى قابس الكهرباء، فرأيت أصابعي قد صارت حمراء، وحين أعدت بصري إلى عريها، رأيت بقعاً وخيوطاً حمراً متفاوتة الأحجام والأطوال، وكانت ملاة السرير لها نصيب من هذا.

انتقلت هي من الشراسة إلى الوداعة في لحظة، وجلست القرفصاء، وغطت جسدها باللحاف الممزق، الملطخ بسواد الفحم، وحرمة الدماء، وانخرطت في بكاء حار.

اقتربت منها، فأطاحت بيدي، وقالت في حرقة:

- جليت لي العار.

هممت أن أقول لها مؤثماً:

- أنت التي أتيت إلى مخدعي، وكنت غائبة عن الوعي.

لكن بلغت لساني، وتناهى إلى سمعي ديب أقدام في الخارج، كانت تقترب وتبتعد، ثم انفتح الباب، ولأول مرة أرى «عبد الشكور» هنا فوق السطح يقف منحنيًا، يستند أولاده الأربعة من منكبيه، وخلفهم زوجته.

دخلوا وأحاطوا بي من كل جانب.

دخلت الغرفة والشمس تخرج منها، والضوء ينحسر عن سريري  
الجديد، فتتمتع العتمة في الجنبات كافة، وتأخذني إلى ما يليق بمثلي أن  
يوجد.

العتمة التي أتيت من آخر الدنيا لأبدها تشتت وتبتلعني في بحرها  
الذي لا أرى قراره.

وجرى الزفاف كما أرادوا، نصبوا سرادقاً عند حنفية المياه، ورقصوا  
على غناء مطرب رخيص، وشربوا صناديق بيرة على قدر ما احتاجت  
عقولهم أن تغيب، وأحرقوا حشيشاً حتى ازرقَّ الهواء من حولهم،  
وعادوا إلى منازلهم وتركوني لمصري، لغياي الطويل عن أحلامي.

أسبوع واحد قضيته بين السطح وغرفتي، تدعوني «سميرة» كل  
وقت لمضاجعتها فألبي، وتصعد إلينا صواني الأكل، بما يعينني على أن  
أكفي شراستها.

وما إن انتهى الأسبوع حتى وجدت «أبو عوف» يطرق باب الغرفة  
عند الضحى، ويقول:

- أها يريدك.

نزلت على السلم وأنا تافه وموزع على عشرات السبل، وراحت  
رائحة طيبة تقتحم أنفي، وتملأ صدري. سعلت وأنا على الدرجة  
السفل، فسمعت «عبد الشكور» يقول وهو يغال سعاله:

- سلامتك يا نسيبي العزيز.

بعد أربع ساعات عقدوا قراني على «سميرة»، وحددوا موعداً  
للزفاف بعد يومين، وكرت الساعات أسرع مما أردت. لكن وهي تسرع  
خطاها رمت في طريقي ما مرق أحشائي.

كنت أرمي رأسي على الوسادة حين لمحت شيئاً يرق في شعاع الللمبة  
المصوب إلى الأرض. قمت إليه، وأمسكته، وخارت قوتي من فرط  
الخدعة. كانت قارورة صغيرة بها بقايا دم.

استدعيت حديث المراتين الذي تسلسل إلى أذني في اليوم الذي فات،  
وضربت كفّاً بكف، لكن لم يلبث عجزني أن ابتلع غيظي.

لم يطلبوا مني أن أستدعي أهلي لحضور زفائي، وحمدت الله أنهم لم  
يصروا على هذا الطلب، الذي لم يكن بوسعي أن ألبيه حتى لو صلبوني.

راقبوني كسجين، وجهزوا لي على عجل أثاثاً بسيطاً، يليق بهذا  
الجحر المعلق في الهواء، واشتروا لي بذلة سوداء، وقميصاً أبيض ورباطة  
عشق حمراء، وعلموني كيف ارتديها. طلبت منهم أن أصعد إلى غرفتي  
لاستريح قليلاً، فهزوا رءوسهم جميعاً.

صعدت السلم المتأكل على مهل، ببطء كأنني ذاهب إلى المشقة. نعم  
لم أكن أكره «سميرة» لكنني كرهت كل ما جرى من أجل أن يربطوها  
بي ويربطوني بها، بجمل غليظ لم أجده أنا. ولم أجد عزائي إلا في كلمات  
قديمة مغفورة في رأسي عن القسمة والنصيب.

## أحدث إصدارات

الدكتور

عمار علي حسن

■ الأيديولوجيا، الموسوعة السياسية للشباب،

■ انتحار الإخوان،

■ باب رزق،

وما إن فتحت عيني اللتين أغمضهما الدخان، حتى وجدت أمامي  
مبخرة متينة مربوطة في حبل مجدول بعناية، وعلى جدرانها المعدنية  
اللامعة نُقشت آية: «ومن شر حاسد إذا حسد».

ووجدت يد «عبد الشكور» تمتد إليها، وترفعها من مكانها في هدوء،  
وتعدها نحوي. نظرت إليه وهززت رأسي مستفهماً، فضحك حتى رأيت  
كل أسنانه المثرمة، وقال:

- اسمع على رزقك.

# رواية باب رزق

هذه الرواية

حين حدثنا عن تحايل الناس على الرزق، هتفت من أعماقي: «هو.. هي..»  
وسكنت أقصد هو الأستاذ، وهي المسألة التي يجب أن تشغلني في قابل الأيام. رجل هو،  
وبقيت هي، ولا استغناء عنها.

في المساء ارتديت أكثر ملابس قاتمة، وذهبت إلى المزاد، فلبس مقطون، وتحت  
القلتين دمع حبس، وقدماي تتحملان الخطوات على مهل، فكانني أن الذي أذهب إلى  
صكفني.

صكفت حزينا صكفا ينبغي للحزن أن يكون، ولم يعرف شكل الذين مددت إليهم يدي.  
التي صكفت لا تزال الرمال عالقة تحت أظفارها. لماذا أنا متأثر بهذا الدرجة؟ ولماذا  
لا تريد يدي أن تقادر أيديهم وأنا أمشي في مواجهةهم مكسورا؟

يتحايل شباب حي عشوائي على التقاط أرزاقهم بطرق غريبة، ويحرسهم  
ككباش الماريونيت عجوز قعيد له في المكر باع طويل. وسعد هذا اليأس تولد قصة حب  
ناقصة، وصراع دام ضد سارقي القوت والفاستدين في جهاز الشرطة، لكن شكل هذا لا يبدد  
أمالا عريضة بالخروج من الأرقعة الفارقة في العوز إلى براع عالم زاهر بالنعمة والراحة.  
في منتصف الطريق تتوالى المفاجآت لتحدد مصائر بشر متعبين وتوزعهم على مصائر لا  
تخطر على بال.

تطلب: رقم القصة: اتصل على

16766

مكتبة مصر العامة، الرئيسية



800106225

